مدرستا أهل القرآن واقرأ لتعليم القرآن الكريم

مقرر المسابقة الثالثة عشر

تفسير القرآن الكريم
الجـــزء الثالث عشر

من كتاب
الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز

يمكنكم الحصول على تفاصيل المسابقة وتنزيل نسخة إلكترونية من هذا المحتوى عبر
موقع المدرستين على شبكة المعلومات العالمية
https://areejquran.net/

دعوة من القلب

لأننا نحبكم في الله فإننا نوجه إليكم دعوة من القلب لخدمة دين الله تعالى من خلال المشاركة في نظام السهم الوقفي والذي يمكنكم التعرف عليه من خلال الرابط المذكور أعلاه أو التواصل عبر الأرقام ٩٩٢٠٦٣١٥ – ٩٨٢١١٢١١ – ٩٢٥٠٨٦١٣

سائلين المولى عز وجل أن يجعل إنفاقكم صدقة جارية في ميزان حسناتكم.

تفسير الجزء الثالث عشر

١. تمكين يوسف عليه السلام من خزائن الأرض

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)﴾

بعد موقفِ ملك مصرَ مع امرأةِ العزيزِ والنّسوةِ اللاّتي قطّعنَ أيديهنَّ؛ وتبيّنِ طهارةِ جانبِ يوسف عليه السلام؛ أمرَ أعوانه: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أحضرُوا إليّ يوسف أجعله من خاصّتي، طلبٌ ثانٍ للإتيانِ؛ فالأوّل لِمَا خبرَ من مكانته العلميّةِ والثّاني لِمَا وجدَ من مبادئه وأخلاقه؛ فعبّر بالاستخلاصِ في الثّاني لشرفه وكأنّ يوسف صارَ جوهرةً نفيسةً لا يوجدُ مثلها، والسّينُ والتّاء في "أستخلصه" للمبالغة أي لا يُشاركني فيه أحدٌ وهو كنايةٌ عن تقريبه الشّديد منه، ولعلّهُ من هذا الموقفِ تحرّر من الاستعبادِ، وقد أوتي بهِ من السّجنِ ولا يبعدُ أن يكون حاضرًا في موقِف النّسوةِ ويكونُ "ائتوني به" بمعنى: قرّبُوهُ إليّ ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ وسعى أعوانُ الملك في إحضارِ يوسف؛ ولَمَّا قدمَ يوسف عليه السلام إلى الملك -وهذا محذوفٌ ليدلَّ على سرعةِ الإتيانِ به- جرى حوارٌ بينهما، وهاءُ "كلّمه" للملكِ والمتكلّم يوسف ويُحتملُ العكس، فالملوك هي التي تبدأُ وتأذنُ في الكلام؛ كما أنّ المنتظَر له بشوقٍ يُحبُّ منتظرهُ أن يسمع منه سَلامه وكلامه ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ قال الملك ليُوسف: أنت مكرّمٌ عندنا اليوم مأمونٌ في جانبك، ومعنى "اليوم" أي الآن وبعدهُ وكأنّه طوى أمسًا من الاستضعافِ وبدأَ يومًا جديدًا من التّمكّنِ؛ واحتاج الكلام لتأكيدٍ إزالةً لما بقي في ذهنِ يوسف من تخوّفٍ؛ وعلى هذا فالأمينُ المؤَمّنُ من الخوفِ؛ والأقربُ أنّه المأمونُ في معاملته، والأمين صفةٌ واجبةٌ في كُلِّ نبيٍّ، والمكينُ صاحب المكانةِ الرّفيعةِ، والصّفتانِ بهما يصلُح وليُّ الأمرِ؛ فثمّةَ تعريضٌ فهمه يوسف من الملكِ بأنّه سيُولّيه فقال عليه السلام له: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ وظّفني في التّسييرِ الاقتصاديّ لبلدك مصرَ، وخزائنُ الأرض بيوت المال والادّخارِ أو خزينة الدّولة باللّغة المعاصرة، وهذا الطّلب طبيعيٌّ من يوسف إذ طلب مصدرَ رزقٍ يقتاتُ منه؛ وطلبَ ما ناسبَ ميوله خدمةً لمن أحبّه واكتسبَ ثقته؛ ثمّ إنّه أحبّ إقامة العدلِ والقيام بمصالِح أمّته لئلاّ يترك المجال لأهلِ الفساد[١] ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فإنّي صاحبُ خبرةٍ في

[١] ويامَا فصّل المفسّرُون في سببِ قولِ يوسف عليه السلام هذا وأبدعُوا؛ معلّلينَ سببه بأنّه لم يكن تزكيةً لنفسهِ أو طلبًا لإمرةٍ أو رُضوخًا لمشركٍ وغيرِ ذلك.

هذا المجالِ، أحفظُ ما أليهِ وأعلمُ ما آتيه، وهاتانِ الصّفتانِ غايةُ ما يُطلب من الموظّفِ في الشّؤونِ العامّةِ فالحفظُ يضمنُ الثّقةَ والقوّةَ في تنفيذِ المسؤولياتِ؛ والعلمُ يضمنُ نوعيّة العمل وسلامته من الفسادِ والخطأِ ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وبمثلِ هذا التّمكينِ رفعنا مِن مقامِ يوسف في بلدهِ الثّاني مصرَ بعدما كان محبوسًا فيه مهانًا، أو الآية بمعنى وكما أكرمنا يوسف بالخروجِ من البئرِ والنّجاةِ من فتنةِ الفاحشةِ والخُروجِ من السّجنِ مكّنّاهُ في الأرض، والآيةُ دليلٌ على أنّ الله يُمكّنُ للأفراد كما يُمكّنُ للجماعاتِ ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ يقوم في مصرَ بالعدل والقسطِ لا يزعجهُ أحدٌ، والمتبوّأُ المنزل والمقام؛ وليس المرادُ يسكن منها حيثُ يشاء إذ السّياقُ في الولايةِ والوظيفة ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ نعطي من فضلنا الواسع الجزيل من نشاءُ أن نُعطي؛ والإصابة استعارةٌ لحالِ الحصول دون توقّعٍ، والله يعطي المؤمن تفضّلاً و ابتلاءً ويُعطي الكافر استدراجًا ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولا ننسى أو نغفلُ أو نهملُ شيئًا من حقوقِ العاملينَ المخلصينَ؛ بل نوفّي لهم أجرهم تامًّا في الدُّنيا ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وثوابُ الآخرةِ بالرّضوانِ والجنّةِ الدّائمة أفضلُ من نعيمِ الدّنيا الزّائل في منظارِ مَن صدَّق بالله واليومِ الآخرِ؛ وخاف الله وعذابه؛ وهؤلاءِ هم المحسنون وزادَ وصفهم بالإيمانِ والتّقوى تقويةً لجانبِهم، وعبّر عن الإيمانِ بالماضي تنويهًا بلزومه دفعةً وأوردَ التّقوى بالمضارع إعلامًا بأنّها تتجدّدُ، وهذا تذييلٌ بديعٌ عَقِب ذكرِ المنصبِ الدّنيويّ ليُذكّر بهِ عبادهُ بأنّ الآخرة أفضل وأوفى من أيّ مرتبةٍ دُنيويّةٍ بلغها الإنسان، والآية تدل على أن النجاة في الآخرة تنال بالإيمان القلبي والتقوى التي هي ترجمة عملية للإيمان ولا تنال بالإيمان وحده..

٢. إخوة يوسف يشترون منه المؤن ويطالبهم بإحضار أخيه

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾

وهنا تعود قصّةُ يوسف مع إخوته بعد طولِ مدّةٍ حين مسّهم القحطُ فجاؤوا يطلبون المؤونة في مصرَ التي بقيت على رخاءٍ ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وقدم إخوةُ يوسف إلى مصرَ فدخلُوا إلى حضرةِ يوسف عليه السلام؛ ودلّت فاءُ التّعقيب على أنّهم جاؤوا قاصدينَ إيّاهُ، وجاؤوا جماعةً تقويًّا؛ وَلأنّ المؤن تعطى حسب عدد الأفرادِ كما سيأتي: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، وفي دخولهم عليهِ ما دلّ على أنّه كان يرعى شؤون وزارته بيدِه قيامًا بالمسؤوليّةِ ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ فاكتشف يوسف عليه السلام بأنّهم

إخوته وهم لم ينتبهوا له بأنّه أخوهم، ودلّتِ الفاء على سرعةِ اكتشافه لهم، ولعلّه عرفهم من عددِهم ومن مجموعهم وحالِهم لكونهم مسافرينَ؛ ويُحتملُ أنّه فكّرهم في الأزمةِ وتوقّع مجيئهم، ولم يعرفوه لهيبةِ الملكِ ولتبدّلِ حاله بتقلّباتِ المحنِ وظنّهم موته أو ضياعه في العبوديّةِ[٢]، وقد جاءَ وصفُ جهلهم له بالجملةِ الاسميّةِ و"لهُ" تقويةً وتأكيدًا، وفي الآيةِ طباقٌ رشيقٌ بين عرفهم ومنكرون ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ وحينَ هيّأ لهم يوسف عليه السلام ما جاؤوا من أجله، ونسبت الآية الفعل إليهِ دليلاً على حسنِ معاملته لأهله والقيامِ بهم على كُلّ حالٍ، وجهازُ المسافرِ ما يُهيّئُه لسفرِه؛ وهنا جناسُ اشتقاقٍ، قال لهم: ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ إذا رجعتم مرّةً أخرى فأحضروا معكم أخاكم الذي تركتموه، والآية نبّهت إلى محذوفٍ وهو أنّ الإخوةَ قصّوا ليوسف بأنّ لهم أخًا لأبيهم بقيَ لم يأتوا به؛ وذكرُوه ليزيدُوا به كيلاً عندهُ[٣]، ولم يقل: بأخيكم كأبيكم ونكّرهُ إمعانًا في تمويههم بأنّه لم يعرفهم بعدُ ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ألا تنظرونَ إلى أنّي أعطيتكم ما طلبتم بالتّمامِ، وأنّي أحسنتُ ضيافتكم، ولعلَّ هذا الإحسان لم يخصّهم بهِ بل هو حكايةٌ لما شُهر به؛ ولم يقله امتنانًا بل إبداعًا في التّسويقِ ليعودوا إليهِ لا إلى غيرِه، وفي الآيةِ ما دلَّ على أدبِ الضّيافةِ في الأنبياءِ، وهذا نوعٌ من التّحبيبِ أعقبه بتخويفٍ فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وإذا لم تجيئوا بأخيكم في المرّةِ القادمةِ فلا حظَّ لكم عندي لأبيعه لكم، ولا داعي لأن تشقوا أنفسكم بالسّفرِ إليَّ، أي بنقصانِ أخيهم في المرّةِ القادمةِ خسرُوا كيلهم وكيلهُ. أجابَ الإخوةُ يوسف: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ سنحاولُ إقناع أبيهِ وإنّا عازمونَ على ذلك؛ وأكّدوا الكلام تطمينًا ليوسف عليه السلام الذي يرتابُ منهم، واحتمل البعضُ أنّه محاولة انتزاعٍ بالحيلةِ والمخادعةِ، وعلى كُلٍّ هو تصويرٌ لحالِهم مع أبيهم بأنّهم يقدّرُون رأيه ولا يغلُبهم أمرُه، ويظهرُ أنّ هذا الموقف من يوسف عليه السلام كان بوحيٍ إتمامًا لمحنته ومحنةِ أبيه عليه السلام ولتتحقّق الرّؤيا؛ وإلاَّ فحريّ بالبعيدِ أن يسرع إلى ملاقاةِ أهله متى تيسّرت له الفرصة ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ وقال يوسف عليه السلام لموظّفيهِ اجعلُوا المال الذي أتى به الإخوةُ في أوعيةِ مؤونتهم، وفتيانٌ جمعُ فتى وهو الشّاب اليافع ويُطلق على الخادم والعبدِ تلطّفًا وأدبًا، والبضاعةُ هنا دراهم التّجارةِ وعِوضُها، والرّحالُ عموم متاع الرّحلةِ حين يهيّأُ ليوضعَ على ظهرِ الدّابةِ، ورأى بعضٌ أنّ هذا الرد واجبٌ من يوسف عولاً لأهله الجائعينَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ عساهم لا يكتشفونها حتّى يصلوا إلى بلدِهم، وإنّما قال "لعلّ" لاحتمال أنّهم يكتشفونها عن قريبٍ في أرضه، أو الآية بمعنى يعرفونها بعينها أنّها لهم وضعت هديّةً من عزيزِ مصرَ، والانقلاب كنايةٌ عن العودةِ ﴿لَعَلَّهُمْ

---

[٢] ولا شكَّ أنّ يوسف لم يبق باسمه هذا وإلاَّ لعرفوهُ بسرعةٍ.

[٣] ولعلّ يوسف لم يعلم به؛ إذ لم يغب أخوهم إلاّ لسببِ صغرِه، ويوسف قد تركهم وهو غلامٌ، فأرادَ اختبارَ صدقهم.

يَرْجِعُونَ﴾ عساهم يرجعُون ظنًّا بأنّ يوسف جرّبهم؛ وقد فعل عليه السلام ذلك لَمّا علم أنّ إخوته على دينِ أبيه الذي يوصي بحفظِ الأماناتِ لأصحابها، أو عساهم يتحتّمُ عليهم الرّجوع إلينا إذا عرفوا سخاءنا وأحسّوا بالأزمةِ أكثرووجدوا وفرةَ بضاعةٍ بين أيديهم.

٣. إرسال يعقوب عليه السلام ابنه إلى يوسف بعد أخذه موثقا من إخوته

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ(٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾

وعاد إخوة يوسف إلى أبيهم يعقُوب عليه السلام فأخبرُوه بما جرى بينهم وبينَ يوسف ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ قالوا له: حرمنا وزيرُ مصرَ من الكيلِ في المرّةِ القادمةِ إذا لم نحضر إليهِ أخانَا الصّغير، والمنعُ مجازٌ عن التّهديد بالحرمانِ لاحقًا، وهنا مقدّرٌ في القصّةِ مفادُه: أنّهم قد قصُّوا لأبيهم كونهم ادّعوا ليوسف عليه السلام بأنّ لهم أخًا فأراد اختبارَ صدقِهم، والنّداءُ بلفظِ الأبوّةِ دون عنوانِ النّبوّةِ فيه تلميحٌ إلى شرف الأبوّةِ الذي لا يُضاهى ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ فأذن لأخينا الصّغيربأن يسافر معنا لأجلِ أن نستوفي حظّنا من الكيلِ بقدرِالعدد الذي نقدُم به إلى الوزيرِ﴿وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ونؤكّدُ لك بأنّا حاموهُ من كُلّ أذًى، وتقديمُ "لهُ" للاهتمام بأخيهم ولتحسين الفاصلة، ولَمّا كان هذا عين ما ادّعوه في شأنِ يوسف قديمًا قال لهم أبوهم: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ كيفَ أُصدّقُكم بأنّكم ستحفظون أخاكم وقد ادّعيتُم مثل ذلك في يوسف من قبل ولم توفُّوا، والاستفهامُ إنكارٌ عليهم تشرّب معنى النّفي، وفي هذا معنى أنّ المؤمن لا ينبغي له أن يسقط في نفس الخطأِ مرّتينِ بل عليهِ الحذر. ولشدّةِ الوضعِ أذن يعقُوب عليه السلام لابنه وقال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أَمَا وإن كان إرسالُ أخيكم معكم أمرا لابدَّ منه؛ فإنّي أثقُ في الله بأنّهُ خيرُ من يحفظه؛ وهو خيرُ من يرحمهُ ويرحمُني في عدم فقدانِ أولادي ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ وحينَ فتحَ الإخوةُ أمتعتهم التي جُهّزت لهم و أتوا بها وجدُوا ثمنَ شرائهم للمؤونةِ رد إليهم كما هو، والمتاعُ عموم ما يُتمتّع به من طعامٍ وثيابٍ ونحو ذلك، وعلموا أنّها ردّت ليقينهم بأنّهم دفعُوها ولِما شهدُوه من إحسانِ يوسف عليه السلام. قال الإخوةُ لأبيهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ماذا نطمع فوقَ ما وجدناهُ من حسنِ الحفاوةِ والإكرام؛ إلى درجةِ أنّ ثمن ما اشترياهُ ردّ إلينا كما هو؟ وهذا

استفهامٌ تعجّبيٌّ؛ وقيل هو بمعنى الإنكارِ أي: كيفَ نبغي؟ بمعنى: لا نتعدّى على من أحسن إلينا حينَ رد إلينا بضاعتنا، وعلى هذا المعنى تكون "ما" لِلنّفي، وعلى كُلٍّ فَهذا القول مبنيٌّ على طلبِ أبيهم بأن يُرسل أخاهم معهم ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ فدعنا نُسافرُ بأخينا لنأتي بكيلنا؛ ولأجلِ طمعنا في الكيلِ الكامل سنحفظُ أخانا، كرّرُوا مسألةَ حفظه تأكيدًا وحثًّا، و"نميرُ" من الميرةِ وهي الطّعام المجلوب للانتفاع به ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ وسيزيدُنا الوزيرُ الكريمُ بحضورِ أخينا معنا حمل بعيرٍ وذلك أمرٌ يسيرٌ عليهِ لسخائه؛ وقيل الزّيادة هنا تأويلُها أنّهم يحظونَ بكيلٍ بلا ثمنٍ، وهذهِ الزّيادةُ التي وصفُوها تصوّرُ ادّخارًا كبيرًا عمل عليهِ يوسف إلى درجةِ أنَّه يعطي الغرباء كلَّ هذا العطاءِ فكيف بمن تحتَ دولته؟ أو "ذلك" إشارة إلى ما جاؤوا به بأنّه قليلٌ لا يكفي ولا بدَّ أن يستزيدُوا بالسّفرِ ثانيةً. ولَمّا وجد الأبُ من أبنائه إلحاحًا و إقناعًا سلكَ معهم مسلكًا جديدًا؛ قال لهم: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ لا أأذنُ لأخيكم بالسّفرِ معكم حتّى تعطوني عهدًا مؤكّدًا باليمين أو إشهادِ الله، والإتيانُ الإعطاءُ؛ اشتهر الإعطاء في كلامِ العربِ -قيل- لكون الحالف فيهم كان يقدّم شيئًا للمحلوفِ له كالخاتم أو السّيفِ تذكرةً باليمينِ ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ جوابٌ لقسمٍ محذوفٍ؛ أي لتقن لهم ما يقولونَ: تحلفُونَ بأنّكم سترجعون بابني سالِمًا إلاّ إذا قدّرَ الله لكم هلاكًا جميعًا، والأمرُ المحيطُ كنايةٌ عن الإهلاكِ؛ ذكرَ هذا تنويهًا لهم بأنّ عليهم أن يدفعُوا عنه كلَّ سوءٍ بكلّ ما أوتوه من التّدبيرِ والحيلةِ ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ولَمّا قدّم الإخوةُ العهدَ المؤكّد لأبيهم قال لهم: الله حافظٌ رقيبٌ لِما قلناه؛ والوكيل مَنْ عمله مراقبةُ ما وكّل له، ويُعدُّ هذا بمنزلةِ التّوكيدِ للحلفِ السّابقِ، وفي هذا وما سلفَ من التّفويضِ تربيةٌ للمؤمن بأن لا يغفل عن تفويضِ الأمورِ لربّه.

٤. دخول الإخوة مصر من أبواب متفرقة و إيواء يوسف لأخيه إليه

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩)﴾

لَمّا لَمسَ يعقُوب عليه السلام ثقةً في أبنائه نبّههم احتياطًا إلى أمرٍ قد يخرُج عن إرادتهم؛ وذلك قبل سفرهم إلى مصرَ ثانيةً، قال لهم: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لا تدخُلوا مصرَ من معبرٍ واحدٍ؛ ولكن قسّموا أنفُسكم وادخُلوها من معابرَ متعدّدةٍ، و إيماءً لعلّةِ الأمرِ ذكرَ التّفريقَ

وهو الأســاسُ لا تعدّد الأبواب؛ فالمرادُ لا تدخلُوا دفعةً واحدةً في وقتٍ واحدٍ، ولم يوصــهم في المرّةِ الأولى بهذا لكون الشّــرطةِ والعيونِ تجهلُهم، وقصــرَ النّهي على البوّابةِ لضــرُورةِ الانحصــارِ فيها ولأنّ الاجتماع عند غيرِها أخفّ ضــررًا، والآيةُ تضــمّنت طباق السّــلبِ بين (لا تدخلوا)(وادخلوا) الذي كانَ طريقًا إلى إطنابٍ في الألفاظِ لغرض إيصالِ المعنى وتأكيده ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولستُ بدافعٍ شيئًا من السّــوءِ قدّرهُ الله لكم؛ ولكنّنا تُعبّدنا باتّخاذِ الأسـبابِ، و"أُغني" من الإغناء وهو توفيرُ الكفايةِ وسـدُّ الحاجةِ في أمرٍ ما، ولعلَّ في ذكرِ توجيهِ الدّخولِ تنويها بِشــأنِ يعقُوب عليه السلام مع بنيهِ في إســداء النّصــحِ بصــفته أباً ســبق في خبرةِ الأمورِ وتجربتها ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ولا يقعُ إلاَّ ما شــاءهُ الله وقدّرهُ فكُلّ الأمورِ بيدِه، والحُكم هنا التّصــرّف والتّقدير ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على الله وحدهُ أعتمدُ في كُلِّ أموري وعلى كُلِّ طالبِ أمرٍ أن يعتمد عليه، والجمعُ بين اتّخاذِ الأسبابِ واعتقادِ أنّ كُلّ شيءٍ بيدِ الله ثمَّ التّوكّل عليهِ صــورةٌ تقلُّ بهذا الشّــكلِ عند النّاسِ؛ ويعقُوب عليه السلام حاولَ ترســيخها في بنيه موازاةً مع إســداءِ النّصــحِ لهم في الأمرِ الدّنيويّ؛ ولعلّه لهذا السّــبب ســيمدحُه الله بالعلم ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ وبعدَ أن سافرَ الإخوةُ ودخلُوا مصرَ من جهاتٍ متعدّدةٍ كما أوصاهُم والدُهم وسلموا من الأعيُنِ ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لم يكن دخُولهم ذلك ليدفعَ عنهم شيئًا قدّرهُ الله لهم إلاَّ أنّ علم الله سبقَ بأنّهم سيدخُلونها بسلامٍ ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ إلاَّ شدّةَ حرصٍ من يعقُوب عليه السلام على بنيه أحبَّ أن يُصرّحَ بها ويُظهرها، والمرادُ لم يترك سببًا ماديًّا أو معنويًّا يرجو من خلاله سلامةَ أبنائه إلاَّ و أتاهُ حتّى نصــيحة كيفيّة الدّخولِ ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ وإنّ يعقُوب عليه السلام لهُو صــاحبُ المكانةِ الرّفيعةِ لِما حمل من علمِ الوحيِ الذي أكرمه الله بهِ، ونُكتةُ التّنويهِ بعلمه هنا أنّه لا يتّكل في المهمّاتِ على نفســه وحيلتِه بل يُفوّض الأمرَ إلى الله؛ وهذا من جملةِ ما علّمه الله فعملَ به ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ غيرَ أنّ كثيرًا من النّاسِ لا يعلمون ضــرُورةَ تفويض الأمورِ إلى الله في كلِّ حالٍ، أو لا يعرفون الأنبياءَ حقَّ معرفتِهم لكي يقتدُوا بخصالهم ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ وحين دخل الإخوةُ إلى حضرةِ يوسف عليه السلام ضمَّ يوسف أخاهُ الأصغر إليه، وأصلُ آوى رجع والمأوى المرجع، استُعمل هنا مجازًا في الإدناءِ والتّقريبِ. وقال يوســف لهُ: ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ إنّني أنا أخوكَ الذي لم تعرفهُ ؛ و أكّد الكلام تهيئةً لنفســه لقبُولِ الخبرِ، ويظهرُ أنّ هذا كلام أســرّهُ له ونبّهتِ الآية إلى أنّه كان معَ تقريبِه إليه. ولا شــكَّ أنّه قد ســمعَ بقصّــةِ إلقائه في البئرِ فقال لهُ يوســف: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلا تطاوع الأحزانَ التي غمرُوك بها لَمّا ســمعتَ بقصّــتي، و"تبتئس" من البُؤس وهو الحزن، وعبّر بالمضــارعِ لإفادةِ تجدّدِ أعمالِهم السّيئةِ، والآية تضمّنت تربيةً لطيفةً بأنّ الحزن مع كونه فطريًّا طبيعيًّا ينبغي أن يكون له حدٌّ ولو مع بقاءِ مسبّبِه.

٥. استبقاء يوسف عليه السلام أخاه معه

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

وحينَ تمّ لقاءُ يوسف عليه السلام بأخيهِ الأصغر دبّر أمرًا لإبقائه معهُ دون أن يرجع مع إخوته إلى والدِه ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ لَمّا هيّأ يوسف عليه السلام للإخوةِ ما استحقُّوهُ من المؤونةِ وضعَ صاعَ الملكِ المعروف لديهم في متاعِ أخيهِ، والسّقاية في الأصلِ وعاءٌ لطلبِ السّقي؛ وهو على مقاديرَ مختلفةٍ منها ما شُهر بعدُ بالصّاعِ؛ وكما تقُول العرب صاع تمرٍ كانت تقُول صاع خمرٍ، وعبّرهنا بالفاءِ وفي التّجهيزِ في السّفرِ الأوّل بالواوِ لأنّه لم يسبق له أن تعرّف عليهم، وبهذا التّدبيرِ كان عدم رجوعِ أخيهم إلى أبيهِ أمرًا ملتبسًا فيه عند الملكِ الذي عرفَ بعدله فتخفّ وطأتُه على الوالدِ ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ وبعدَ خروجِ الإخوةِ وسيرِهم ناداهم منادٍ، والمؤذّنُ من يكرّرُ نداءً ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ يا أصحابَ الإبلِ إنّكم متّهمونَ بالسّرقةِ، والعيرُ الجمالُ المحمّلة؛ توسّع استعمالُها حتّى سُمّيت كُلّ قافلةٍ عيرا، ويظهرُ أنّ هذا المنادي أرسله يوسف عليه السلام[٤]، وقد فعل يوسف عليه السلام ذلك بوحي من الله، وبهذا يندفع إشكال قد يثار: كيف دبر يوسف هذا الأمر مع ما فيه من زيادة حزن أبيه؟ واختار تسميتهم بالعير إظهارًا بأنّهم غرباء والغريب أدعى لإلصاقِ التّهم، وسارع المتّهم بالقذفِ وأكّدهُ شأنَ شُرطةِ التّحقيقِ التي تتفنّنُ في إرعابِ المتّهَمِ، ولا شكَّ أنّ المؤذّن كان مع أعوانٍ ظهر للإخوةِ بأنّهم رجالُ أمنٍ، فلم يكن منهم إلاّ أن ﴿قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ التفتوا إلى جهةِ النّداءِ متقدّمينَ إلى الشُّرطةِ يتساءلُون: ماذا ضاعَ منكم؟ والاستفهامُ تعجّبٌ واستغرابٌ، والإقبالُ سبقَ قولهم، وعدم إجابتِهم بألفاظِ السّؤالِ أي ماذا سرقنا أو سُرق لكم؟ براعةٌ في تصويرِ نزاهةِ أنفُسهم وتعريضٌ لهم بأن يتأدّبُوا في إسقاطِ الأحكامِ؛ كما أنّ تقدّمهم إليهم بدل تجاهلهم للنّداءِ محاولةٌ لإبعادِ الشّكوكِ عنهم. أجابتهم الشّرطة التّحقيقيّة: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ ضاعَ منّا مكيالُ الملك، والصّواعُ أو الصّاع واحدٌ وهو أداةٌ للكيلِ؛ وإضافته للملكِ على سبيلِ إثباتِ فظاعةِ سرقته، والملك هنا يوسف عليه السلام على سبيلِ التّعظيم؛ أو ملك الدّولةِ

[٤] وقد اجتهدَ بعضُ أهلِ التّفسيرِ في تنزيهِ مقامِ يوسف من إرسالِ من يقذفُ إخوته بتهمةِ جزافٍ، أو حاولوا تأويل ذلك بأنّه أبيحَ لهُ كما أبيح زيادةُ إحزانه لأبيهِ، حتّى إنّ البعض تأوّل سرقتهم بسرقةِ يوسف من أبيه رفعًا لادّعاءِ أنّ يوسف سبّب القذف.

على الحقيقة، وما ألطف أمر يوسف جعل في سفرِهم الأوّل بضاعةً أفرحتهم؛ وفي السّفرِ الثّاني صواعًا أربَكهم! ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ ونعدُكم أنّ من يأتينا بالصّواعِ نكافئه بعطيّةِ حمل بعيرٍ من المؤونةِ؛ وهو مقدارٌ كبيرٌ لأنّ الدّراهم قيمةٌ معنويّةٌ لا تنفعُ مع فقدانِ المشترياتِ. قال أحدُهم ولعلّه المؤذّنُ: ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ و أنا ضامنٌ للحملِ بأنّه يُقدّمُ لكم، والزّعيمُ الكفيلُ الضّامن.

أجابهم الإخوةُ والحيرةُ تملأُ جوانبهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ والله الذي نؤمنُ به: لقد جئنا إلى بلدكم مصرَ لنمتارَ لأهلنا مؤونةً وليس لنا غرضٌ في الإفسادِ مطلقًا ونحسبُكم تعلمون ذلك، ولعلّهم أشارُوا إلى كونهم قد تحرّوا في البضاعةِ التي رُدّت إليهم، وقد نفوا الإفسادَ أوّلا ثمَّ أكّدوهُ بنفيِ السّرقةِ؛ ولم يقولوا: لم نسرق؛ بل نفوا أنّهم سرقُوا مطلقًا ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ولسنا أهل سرقةٍ أبدًا، وفي هذا الموقف عبرةٌ جليلةٌ مفادُها أنّه على المؤمنِ أن يجتهدَ ويداوم الصّدق مع الله ولا يكون موضع ريبةٍ؛ حتّى إذا انغلقت أبواب البشرِ أمامه جعل الله له أسباب خروجه من الاتّهامِ؛ كما سبقَت واقعةُ يوسف وقدِّ قميصه. ردّت عليهم شرطةُ التّحقيق: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ما هو جزاءُ من يسرقُ عندكم إن حكمنا بأنّكم كاذبون في قولكم: "ما كنّا سارقين". والآيةُ على حذف مضافٍ أي ما جزاءُ سرقتِه، وفي هذا تحكيمُ الأجنبيّ بقانونه الذي يخضعُ له في دولته وذلك أدعى لرضوخه وللعدل. أجابَ الإخوةُ: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ جزاءُ السّارقِ الذي تجدونَ صاعكم في أمتعتِه أن يقدّمَ نفسه لمن سرقه فيكون عبدًا له، و إنّما عُلم الاسترقاق من كونِ تقديمِ النّفسِ هنا لا يليقُ إلاّ لذلك، ورأى بعضٌ أنّه استرقاقٌ بمعنى الاستخدامِ فهو مؤقّتٌ حسب المسروق لا متصلٌ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ بمثلِ هذا الحُكم نحكم في شريعتنا على كُلّ متعدٍّ، وإذا علمنا هذا من القرآنِ الصّادق تيقنّا أنّ في قطعِ اليدِ في الشّريعةِ الإسلاميةِ تلطّفا ورحمة، والآياتُ وصفت معصيةَ السّرقةِ بدايةً بالفسادِ ونهايةً بالظّلمِ وهو عينُ ما تُعاني منه كثيرٌ من المؤسّساتِ العُموميّة اليوم ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فشرعَ المكلّفُ بالبحثِ في أمتعةِ الإخوةِ في التّحرّي، واستعمل الفاء تصويرًا لسرعةِ البدء في البحثِ بعد تجلّي الحُكم، والوعاءُ مشتقٌ من الوعي وهو وسيلةُ الحفظِ، ومن تمامِ التّعتيمِ لم يبدؤوا بالوعاءِ الذي يعلمون وجود الصّواعِ فيهِ ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أفادت "ثم" أنّهم تمهّلُوا في عمليّةِ التّنقيبِ إلى أن وصلُوا إلى وعاءِ الأخِ الأصغر فاستخرجوا الصّواع منه، ومن رشاقةِ الخطاب أنّه عبّر بضمير التّأنيثِ ردًّا للقارئ إلى صدرِ القصّةِ حينَ ذكرَ السّقاية، ولم يعبّر بكونهم وجدوهُ لأنّهم على علمٍ بهِ، وقيل: المفتّشُ يوسف عليه السلام والإخوةُ رجعُوا إليهِ ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ هذا ما ألهمنا يوسف عليه السلام أن يفعلهُ ليستبقي أخاهُ عندهُ، وتأويل كيدِ الله هنا أنّه إرادةُ الله أن تنجحَ هذهِ الخطّة لصالِح يوسف، ومزيدُ بيانِ الكيدِ في قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ما كانت شريعةُ

الْمَلِكِ تسمحُ ليُوسف عليه السلام أن يقُوم بكلِّ ما قامَ بهِ من أجلِ أن يخلُصَ إلى حبسِ أخيهِ عندهُ، بمعنى أنّ عقُوبة السّرقةِ ثابتةٌ في شريعةِ الملكِ دون أن يصلَ الأمرُ إلى حدِّ أخذِ السّارقِ بذاته ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ولكنّ الله شاءَ أن يحدُث ذلك الأخذُ بتدبيرِه الحكيمِ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ يُعلي الله مِن شأنِ مَن شاءَ من عبادِه، ولعلّ نُكتة هذا التّذييلِ تنويهٌ إلى أنّ محطّاتِ الحياةِ كلّها لا تخلُو من أسبابٍ للرّفعِ أو الخفضِ على مستوى الأفرادِ والجماعاتِ، ومثالُ ذلك في القصّةِ رفعُ درجةِ الأخِ الأصغروتقريبه من أخيهِ الذي حظي قبله بمقامٍ أرفع ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وفوقَ كُلِّ عالمٍ من الخلقِ من هو أعلمُ منه، ولا يعلمُ أعلمَ الخلقِ إلاَّ الله؛ وعليهِ مهما بلغَ المرءُ من مراتبِ العلومِ عليه أن يحتمل أنّه ثمةَ من يفوقه واعتقادُ الكمالِ نقصٌ، أو المعنى وفوق كُلِّ عالمٍ من البشرِعليمٌ وهو الله.

٦. استعطاف الإخوة يوسف عليه السلام ورفضه ذلك

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)﴾

بعد أن نفى الإخوةُ كونهم سارقينَ عمومًا تركوا احتمالاً استثنائيًا ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إذا كان أخونا الأصغرسرقَ الآن الصّواع فليس في الأمرِ غرابةٌ فقد سبقهُ أخٌ بالسّرقةِ؛ والأخوانِ المتقاربانِ يتعلّمان من بعضهما، وعبّرُوا بلفظِ الشّكِّ لعدم تحقّقِ ذلك عندهم، ويقصدون بالأخ يوسف عليه السلام، وما نسبُوه لِيوسف عليه السلام من السّرقة لم يفصّله القرآن وهو افتراءٌ ولا شكّ؛ تهويلاً لشيءٍ أخذهُ بحقٍّ ولم يدركوا وجهَ حقّه فيه[٥]، ولعلّه قولٌ صرّحوا به في حين توهُّمِهم أنّه لا يصلُ إلى أسماعِ غيرِهم، وأرادُوا به يوسف عليه السلام ولذلك جاءَ التّعقيبُ: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ فأخفى يوسف عليه السلام أثرتلك التّهمة في نفسه ولم يكشف لهم شيئًا، وعدمُ إبدائها تأكيدٌ لكونه أسرَّها، وفي هذا تلطّفٌ عظيمٌ بهم لئلاَّ يحرجهم ويذلّهم وهم في موقِفِ ضعفٍ، وهذا الخلقُ وهو عدم الانتقام للنّفس من أسبابِ الرّفعِ التي سلف الحديثُ عنها في الآيات. أو الذي أسرّهُ في نفسهِ مقولته: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ كم أنتُم أهل قبحٍ وكيدٍ يا إخوتي! والله يعلمُ ما تفترُونه علينا

[٥] وقد اجتهد المفسّرُون كثيرًا في تأويلِ الآيةِ حتّى ذهبَ بعضٌ إلى أنّ الأخ هنا في الإنسانيّة، بمعنى أنّه ليس أوّل من يسرق فكما سرقَ مَن قبله ونال جزاءه فدعُوه ينل جزاءهُ.

وسيُحاسبُكم عليه، و"شرٌّ" و"أعلمُ" سُلبا معنى المفاضلةِ، أو هما على المفاضلةِ بمعنى أنتُم أشدُّ شرًّا بفعالكم ممن اتّهمتموهما بالسّرقةِ، والله أعلمُ بحالكم منّي أي يعلم كثيرًا مما لم أَشهدهُ منكم، و"مكانًا" هنا بمعنى حالاً على سبيلِ الاستعارةِ.

ولَمّا لم يجد الإخوةُ وراء أسلوبِ الاحتجاجِ نفعًا عمدُوا إلى أُسلوبِ الاستعطاف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يا عزيزَ مصرَ إنّ لأخينا الأصغر والدًا بلغ سنّ الشيخوخةِ والهَرم؛ فارحم حنين الكبيرِ إلى الصّغيرِ واشتياق الصّغيرِ إلى الكبيرِ، واستعملوا صفةَ الكبيرِ تأكيدًا لتحقّقِ شيخوختِه؛ ويُحتمل قصدوا بها أنّه ذو مكانةٍ، وعلى كُلٍّ استعطفُوهُ بثلاثةِ أمورٍ الأبوّة والشّيخوخة والكبر ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ ولكَ أن تحبسَ أحدًا منّا عندك بدله؛ فالأب أقلّ اهتمامًا بالكبيرِ، وفي هذا دلالةٌ على معنى الافتداءِ بالرُّوحِ من أجلِ إنقاذِ أخٍ ضعيفٍ ورحمةِ أبٍ هرمٍ، وإشارةٌ إلى أنّه مهما فسد الفردُ فستبقى فيهِ بقيّةٌ من خصالِ الخيرِ وربّما العظيمة، وعبّرُوا بلفظِ الآحادِ (أحدنا) احترازًا من أخذِ بدلينِ وأكثر ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إنّا نجدُك صاحب فضلٍ وإحسانٍ تنزلُ عند طلبِ الغيرِ، وهذا عينُ ما مدح به فتيةُ السّجنِ يوسف عليه السلام. ردَّ عليهم يوسف: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ نعوذُ بالله أن نجازي أحدًا بذنبِ غيرِه، فلا يحقُّ لنا أن نحبس إلاَّ من وجدنا ما فقدناه عندهُ، ولم يقل: إلاَّ مَن سرقَ متاعنا لئلاَّ يوقعَ التّهمةَ جُزافًا على أخيهِ، وحتى لا يكون كاذبا ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ إذا فعلنا ذلك كنّا ظالمين لأنفسنا بتغيير ما وجبَ علينا؛ أو ظالمينَ للذي أخذناهُ في المآلِ وإن رضيَ بالأخذ الآن، أو ظالمينَ لغيرِهِ بإطلاقِ سراحِ الجاني فيكون ذلك سببًا لتكرّرِ الجريمةِ ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ وحينَ انقطعتِ الآمالُ أمام الإخوةِ في رجع أخيهم إليهم؛ انحازوا إلى جانبٍ يتناجونَ بينهم، وتعبيرُ الآياتِ من بديعِ التّراكيب القرآنيّة، والاستيئاسُ مبالغةٌ في اليأسِ؛ وتعليقُ الحُكم بالذّاتِ (مِنْهُ) أبلغ مما لو استيأسُوا من ردّهِ وعدمِ أخذه. وخلصوا: بمعنى اعتزلوا و انفردوا. وأصله من الخلوص وهو الصفاء من الأخلاط، قال لهم أخوهم الكبير في السّنِّ أو المكانةِ: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أنسيتُم أنّ والدكم قد استحلفكم بالله واستشهدكم به على حفظِ أخيكم ورده إلاّ أن يصيبكم ما تهلكون به جميعًا؟ فالاستفهامُ تقريريٌّ بمعنى أنّه لا ينتظرُ منهم جوابًا ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ ولقد سبقَ لكم أن ضيّعتُم حقّ أخيكم يوسف في الحفظِ بعد الوعدِ والتّأكيدِ لأبيكم، والمعنى أنّه غيرُ مصدّقكم بحالٍ من الأحوالِ بعدَ الميثاقِ الذي ترتّب على قضيّةِ يوسف، وبناءً على هذا يختارُ بقاءهُ في مصرَ دلالةً على عدمِ ظلمه لأخيه وحفظِه بما يستطيعُه من المجاورةِ؛ قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فلن أُغادر أرض مصرَ التي بها أخي المأخوذ للاسترقاقِ إلى أن يسمح لي أبي بالقدومِ إليهِ ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أو يقضي الله في شأني بخلاص

أخي أو أيّ أمرٍ آخر وهو أعدلُ من حكم وأحكم من قضى، ولم يحكِ القرآنُ موقفًا للأخِ المستبقى ولعلّهُ كلّفه يوسف عليه السلام بالسّكوتِ بأمرٍ حكوميّ تفعيلاً لخُطّةِ استبقائه؛ ومن جهةٍ يُمكنُ أن يستأنس بهذا على أنّه صغيرٌ فاحتاجَ إلى من يُمثّله.

٧. صبر يعقوب عليه السلام على فقد ابنه، وحزنه على يوسف

﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)﴾

ويتواصلُ حديثُ كبيرِ إخوةِ يوسف يقُول لإخوته: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ عُودوا إلى أبيكم يعقُوب عليه السلام وأخبرُوهُ بأنّ ولدكَ الذي استأمنتنا عليهِ قد ارتكبَ سرقةً، وتلقينُهم صيغةَ القول تنبيهٌ إلى مراعاةِ الأدبِ معه، ويلزمُ تقديرُهنا أي سرقَ فكان جزاؤُه الاسترقاق فلم نرجع به، واحتمل بعضٌ أنّ هذا من كلامِ يوسف عليه السلام كأنّه اقترحَ عليهم بعدَ طولِ احتجاجٍ واستلطافٍ أن يرجعُوا، والرأي الأول أقوى؛ مراعاة للسياق، وحتى لا ينسب إلى يوسف عليه السلام التصريح بسرقة أخيه ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ولسنا نحكي دعايةً أو شائعةً بل نشهدُ بما علمناهُ ورأيناه من وجودِ الصّواع في رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ولسنا على علمٍ بملابساتِ السّرقة وكيفَ تمّت، أو لا نعلمُ الغيب بأنّه سيسرقُ وإلاّ لَما تركناهُ، أو لو كنّا نعلمُ بأنّه سيسرقُ فيورّطُنا لَما سافرنا به، وعلى كلٍّ هو تذييلٌ وراءهُ تلطّفٌ مع أبيهم في نسبةِ ابنه إلى السّرقة ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ وإن شئتَ فأرسل إلى مصرَ وتحقّق من الحادثةِ بنفسكَ مع أهلها، وسؤالُ القريةِ مجازٌ عن سؤالِ أهلها، وسُمّيت القريةُ قريةً لأنّها تقري النّاسَ أي تجمعُهم، ولم يعبّرُوا بالمدينةِ لتحديدِ إطارٍ أضيقَ مع أنّه سبقَ في السّورةِ ذكرُ مصرَ بالمدينةِ ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ وتحقّق إن شئت في الأمرِ مع أفرادِ القافلةِ الذين صاحبُونا في العودةِ من مصرَ، وستجدُ أنّنا صادقون، وأكّدوا كونهم صادقينَ لعلمهم أنّ أباهم يتوجّسُ مكرهم.

ورجعَ الإخوةُ إلى أبيهم يعقُوب عليه السلام فقصُّوا عليه ما حدثَ؛ فردَّ عليهم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ليس الو اقعُ كما تدّعون بل زيّنت لكم أنفسكم حيلةً فدبّرتموها، وهذا الظّنُ من يعقُوب عليه السلام محمولٌ على طبعه البشريّ في مواجهةِ المصيبةِ النّازلةِ؛ وإن كان في الظّاهرِ ليس ثمّةَ من

أمرٍ دبّرُوهُ إلاَّ بالتّأويلِ؛ كأن يُقال: كيف سارعتُم في تصديقِ أنّه سرقَ ولم تتبعُوا حيثياتِ السّرقةِ؟ يقُول صاحبُ التّحرير والتّنوير: "يجوزُ على النّبيّ الخطأُ في الظّنّ في أمورِ العاداتِ"[٦]، وهو معذورٌ في هذا الظن لأنهم وضعوا أنفسهم في محل سوء الظن بسبب فعلهم في يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ و إنّي صابرٌ صبرًا حسنًا على ما فجعتموني بهِ، ونفسُ الكلامِ صدر من يعقُوب عليه السلام في فقدِ يوسف عليه السلام؛ وقد تذكّرهُ حينها فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لعلّ الله يلمُّ شملي بأبنائي جميعًا يوسف وكبيرُ الإخوةِ وصغيرُهم، وفي هذهِ المقولةِ من الأملِ القويّ في فضلِ الله ما يُخفّف من وطأةِ المصيبة؛ وبذكرِ الله والتّضرّعِ إليهِ تتنزّلُ رحماتُه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ إنّ الله وحدهُ يعلمُ حالي ويعلمُ حال من فقدتُ من أبنائي؛ وهو صاحبُ الحكمةِ المطلقةِ في كُلّ ما قضاهُ ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ وصدَّ يعقُوب عليه السلام وجهه عن أولادِه؛ وفي ذكرِ هذهِ المحطّةِ تنبيهٌ إلى أدبِ تركِ مُسبّباتِ الحزنِ واجتنابها تخفيفًا على النّفسِ؛ وتنبيهٌ إلى أنّ غايةَ ما فعله بمن سبّب له الحزن أن تولّى عنه دون غضبٍ أو انتقامٍ. وحينها قال يعقُوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ يا أسفي على ابني يوسف احضُر فهذا وقتُكَ؛ وهذا النّداءُ كنايةٌ عن التّحسّرِ، والأسف أشدُّ من الحزن، و إنّما ذكرَ تأسّفه على يوسف دون غيرِه لأنّ فقدهُ أطول وسبب الفقد أحزن؛ ولعلّ حزنه اشتعل عليه لبروزِ من حاولَ أن يتقاسمه الحزن الذي كان مفرّغًا ليوسف. ويتطوّرُ أسفُ يعقوب إلى بُكاءٍ مستمرٍّ حتّى يفقد بصرهُ ﴿وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ وصارَ لونُ عينيه بياضًا كُلّه من شدّةِ الحزنِ واستمرارِه، والحزنُ سببٌ للبُكاءِ ولا شكَّ أنّ البُكاءَ هو الذي سبّبَ بياضَ العينينِ وكأنّ الدّموع غسلَت سوادَها، وضعف بصرِه بسببِ الحزنِ متّفقٌ عليهِ؛ أمّا زواله كلّه فذهب مَن ذهبَ إليه تأويلاً ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ فحالُه حالُ قِربةٍ حبسَ ما فيها؛ وتلكَ استعارةٌ، و"كظيم" صيغةُ مبالغةٍ من الكظمِ وهو هنا حبسُ الحزن، مأخوذ من كَظَم البعيرُ على جِرّته إذا ردَّدها في حلقه، وكلُّ ما سُدَّ من مَجْرى ماء أو باب أو طَريق يقال له: كَظْمٌ، وفي الآية دليلٌ على جبلّيةِ الحزنِ والأسى من دونِ أن يكونَ سخطاً أو جزعًا من القدرِ. عقّب الإخوةُ على تأسّفِ أبيهم بقولِهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ ألا تزالُ تستحضرُ ذكرَ يوسف، وفي الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ وأصلُ الكلامِ والله لا تفتأُ تذكُرُ؛ لعلمِ النّفيِ من المقامِ، ومرادفُ لا تفتأُ لا تفتُرُ، وحلفُهم هنا وراءهُ حملُ أبيهم بأقوى المحاملِ ليترُكَ الحزنَ على يُوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ حتّى تعرّض نفسكَ للمصائبِ المقعِدةِ، أو النّوائبِ المهلكة، والحرضُ أيّ ضرّ قد يُصيبُ الجسم أو العقل؛ وعبّرُوا به مصدرًا للمبالغةِ، ويُمكنُ تفسيرُ "أو" بمعنى "إلى" أي تمرضَ وتُضرُّ إلى أن تهلكَ. قال يعقُوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ إنّما أقدّمُ حالي لله وحدهُ لا أُقدّمه لأحدٍ، وأصلُ البثّ تفريقُ الشّيءِ ونشرُهُ؛ وهو هنا استعارةٌ لما يلقيه المرءُ من همٍّ

[٦] الطّاهر بن عاشُور: التّحرير والتّنوير، ج١٣، ص٤١.

وتفكيرٍ، ولعلَّ في البثِّ معنى الاستياء ممّا قد يحدُث وفي الحزنِ والأسفِ استياءٌ بما سلفَ، واحتمل بعضٌ أنّ هذه الشّكوى عبادةٌ في شرعه ولو وصلت إلى حدِّ ابيضاض عينيه كما أنّ مُحمّدًا ﷺ تفطّرت قدماهُ بقيامِ اللّيل ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ و إنّي مستيقنٌ برحمةِ الله أرى ما تظنّونه مستحيلاً سيقعُ؛ فلا تحاولوا لومي وصرفي عن الاشتكاء، ولا يبعُد أنّ يعقُوب عليه السلام أشار بقوله هذا إلى ما يأتيهِ من الوحيِ في شأنِ بنيهِ وما ينتظرُهُ من تأويلِ الرُّؤيا التي تلقّاها سماعًا من يُوسف عليه السلام؛ ولا يتعارضُ هذا مع شدّةِ حزنه إذ يمكنُ أن يعلم أنّهم سالمون ولا يدري مكانهم وهل سيقدّرُالله بينهم لقاءً، ولهذا لم يحكِ القرآنُ حزن يوسف واشتياقه لأبيه لأنّ حاله يختلف.

٨. دخول الإخوة على يوسف عليه السلام في استجداء وتعرفهم عليه

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)﴾

ويتواصلُ كلامُ يعقُوب عليه السلام مع بنيهِ يأمرُهم: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ سافرُوا إلى حيثُ تظنّون وجودَ يوسف وأخيهِ الأصغر فيه، وخاطبهم بعنوانِ البنوّةِ وأضافهم إلى نفسه لإظهارِ ميله إليهم وتعاطفه معهم، والتّحسّس البحثُ بالحواس عن شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا ويختصُّ التجسّس بما هو شرٌّ؛ وقيل: مترادفانِ والتّحسّس أعمّ، ولم يذكر أخاهُما الأكبر لعلمه بأنّه حبس نفسه لسببٍ معلومٍ ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من فضلِ الله وفَرَجِه، والنّهيُ هنا للتّحريمِ؛ يقُولُ القطبُ: "والإيّاسُ من رحمة الدّنيا كُفرٌكما هو من رحمةِ الآخرةِ كفرٌ"[٧] والكفر كفر نعمةٍ لا كفر شركٍ، والرَّوح طيّبُ النّسيمِ أو نَفس الحيّ استعيرَ لفَرَجِ الله، ثمّ علّلَ النّهيَ بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ إنّ أهل الكفرِ الجاحدينَ لقدرةِ الله هم مَن يوصفون بالقنوطِ من رحمةِ الله، بمعنى لا تلتفتوا إلى المعطياتِ القائلةِ بأنّ يوسف وأخاهُ لا يُمكن أن يكتشف مكانُهما لبُعدِ المدّةِ أو تبدّلِ الحالِ؛ فإنَّ المتيقّنَ بالله ينظُرإلى أبعدَ مما ينظُرإليه المادّيّ الذي لا يؤمنُ إلاَّ بظواهرِ الأمورِ.

وهكذَا يرتّبُ الإخوةُ سفرًا ثالثًا إلى يوسف عليه السلام؛ ولمّا تيسّرلهم الالتقاءُ بهِ اشتكوا له: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يا عزيزَ مصرَ قد أُصبنا وأُصيبَ أهلنا بالقحطِ وقلّةِ ذاتِ

[٧] امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، مصدر سابق، ج٧، ص١٩٠.

اليدِ، وتجدّدُ التّعبيرِ بالدّخول على يوسف عليه السلام تضمّن تنويها بعملِه القارّ المستمرّ في رعايةِ مصالِح الأمّةِ، وقد مهّدوا بالاشتكاءِ ليقُولوا: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ ولقد قدمنا إليك ببضاعةٍ زهيدة؛ وهي المال ومطلقُ العوض، و"مزجاةٍ" مدفوعة بتكلّفٍ لعدمِ الرّغبةِ فيها إمّا من البائع أو المشتري من فعلِ زجَّ أي دفعَ ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فبع لنا بمالنا هذا ما نستوفي به عوضه من المؤونةِ والطّعامِ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ وزد لنا بعض المؤونةِ على سبيلِ التّصدُّق، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الصّدقةَ لم تكن محرّمة على النّبيّ يعقوب عليه السلام وآلِه كما حرّمت على مُحمّدٍ ﷺ، أو أرادُوا بالتّصدّقِ إطلاقُ أخيهم يرجعُ معهم لأنّه صارَ مملوكًا في نظرِهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ واستيقن أنَّ ربّنا جلَّ شأنُه يثيبُ أهل التّصدّقِ والإحسانِ بأضعافٍ كثيرةٍ، وهذا الاستلطاف الشّديد منهم يندرجُ تحتَ ما خرجوا من أجله وهو التّحسّس فكأنّهم استعملُوا أُسلوبًا لجلبِ اهتمامِ العزيز لقضيّتهم أكثر ممّا لو طلبُوه مباشرةً.

ورأفةً من يوسف عليه السلام بحالِ إخوته وأهلِه وما بلغُوه من العنتِ كشفَ لهم ما بقي في نفسه يكتُمه: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هل تذكُرونَ ما جنيتُموهُ في حقّ يوسف قديمًا وفي حقّ أخيه قبل مُدّةٍ غيرِ بعيدةٍ، ويظهرُ أنَّ ما فعلوهُ بأخيهِ التّفريقُ بينه وبينَ يوسف وخذلانه حين اتّهم بالسّرقةِ، ولعلّه لم يُعاتبهم بهذا إلاَّ لَمّا رأى منهم حسنَ حالٍ باجتهادهم في إرضاءِ أبيهم؛ ولذلك قرنَ أفعالهم الشّنيعة بزمانِ جهلهم ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ حينَ ركبكم الجهلُ والطّيشُ، وقوله هذا توبيخُ نُصحٍ ليتوبوا وليسَ فضيحةً؛ وقد ضمّنه علّةَ سقُوطِهم في المحظورِ وهو الجهلُ؛ جهلٌ بعو اقبِ الأمورِ ما حملهم على الاندفاعِ إلى الباطلِ.

ورجعَ الإخوةُ إلى أنفسهم فوجدُوا أنَّ وراءَ موقفِ العزيزِ الذي بالغ في إكرامهم أمرٌ؛ ولا يسألُهم بهذهِ الطّريقةِ إلاَّ مَن لهُ علمٌ قديمٌ بقصّتهم فسألُوه: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ لعلّكَ أنتَ بالذّاتِ يوسف الذي رميناهُ في البئرِ ثمَّ لم ندرِ ماذَا جرى لهُ؟ ويُناسبُ سؤالهم هذا ما نبّههم إليه أبوهم قريبًا في قولِه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وما وصّاهم به من عدمِ اليأسِ من روحِ الله، وورودُ الكلامِ مؤكّدًا أفادَ أنّهم قد ترجّح لديهم بأنّه يوسف عليه السلام وإنّما يسألُون تثبُّتًا، أجابهم: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ أنا يوسف الذي تتحدّثون عنه وهذا أخي، وكرّرَ اسمه ظاهرًا لإثباتِ ما تعجّبُوا منه، كما أنّه أشارَ إلى أخيهِ وهو لا يخفى عليهم تعريضًا لما أحدثُوهُ بينهما من التّفريقِ ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ قد حبانَا الله بالمكانةِ الشّريفةِ بعد ما رأيناهُ من الذّلّةِ والمهانةِ، ولم يذكر يوسف عليه السلام صاحبَ فضلٍ عليه في كُلِّ مراحلِ محنته تربيةً لنسبِ الفضلِ إلى الله وحدهُ ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ إنّ من جمع بينَ خشيةِ الله والصّبرِ عند الشّدائدِ، وفيهِ تعريضٌ بعدمِ خشيةِ إخوته لله لَمّا فعلُوا به وبأخيهِ ما فعلُوا، وتعريضٌ بعدمِ صبرِهم على ما وجدُوه من أبيهم في إيثارِهِ عليهم في تصورهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإنّ الله يثيبُ

المتّقي الصّابر لا يهملُ شيئًا من أجرِه، وأظهر "المحسنين" في موضعِ إضمارٍ تبيينًا بأنّها صفةٌ تجمعُ أعظم الصّفاتِ وهي التّقوى والصّبر، ومثلُ هذا الموضعِ يعدُّ بيتَ القصيدِ من القصصِ القرآنيّ؛ فقد تضمّن موعظةً مؤثّرةً على قصرِها لكونها جاءت في لحظةٍ تأثّرَلها السّامع واحتاجَها؛ ولكونها ثمرةَ درسٍ و اقعيٍّ حيٍّ.

٩. اعتراف إخوة يوسف بخطئهم، واستبشاريعقوب عليه السلام بعودة ابنه

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)﴾

وهنا يأتي اعترافُ إخوةِ يوسف عليه السلام بخطئهم حقَّ الاعترافِ قائلينَ ليوسف: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ والله لقد فضّلك الله علينا بنعمة الدّينِ والخُلقِ وبشرفِ السّيادةِ والمكانة، وكأنّهم بهذا علّلُوا لأنفُسهم سببَ إيثارِ أبيهم القديم له بأنّه لم ينشأ عن فراغٍ ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ ولم نحظَ بما حظيتَ بهِ لِما تلبّسنا بهِ من الخطايا في حقّ الله والعبادِ. أجابهم يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا لومَ عليكم مطلقًا؛ ونفيُ التّثريبِ وهو التّوبيخُ والتّأنيب نفيٌ لِما فوقه من العقابِ، والظّاهرُ أنَّ تمام الجملةِ هنا ولفظُ "اليوم" متعلّقٌ بما بعدهُ؛ لأنَّ هذا التّركيب جرى مجرى المثل ونحوه: "لا بأس عليكم"، وهكذا سارعَ الإخوةُ إلى اعتر افهم بالخطأ لظهورِه جليًّا في موقفٍ لا يسعُهم معه إلاَّ الإذعان؛ فلم يشأ يوسف عليه السلام أن يؤخّرَ بيانَ العفوِ عنهم تتميمًا لكرمه لهم، ومن بديعِ أدبهِ أن قال: ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الله جلَّ شأنه يغفرُ خطاياكم بتوبتكم الصّادقةِ، وهو دُعاءٌ أو إخبارٌ بغيبٍ، وذكرَ "اليوم" إشارةً إلى أنّه عفوٌ ثابتٌ الآن لا نظر فيهِ؛ وثباتُه وقت التّوبيخِ يجعلُ ثباته فيما يأتي بالتّبع، ولم يقل: اليوم عفوتُ عنكم دفعًا لحظوظِ النّفس في أنّ له فضلاً عليهم، كما أنّه بذكرِ هذا كأنّه قال لهم: كيفَ لا أعفو؟ والله الذي هو أعزّ سلطانًا منّي يعفُو ويرحمُ بلا تأخيرٍ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ والله أشدُّ رحمةً من كُلِّ راحمٍ، ومن رحمته أنّه يكرمُ التّائب وكأنّه لم يذنب قطُّ.

ثمَّ يوجّه يوسف عليه السلام إخوته إلى تبشيرِ أبيهم بحياته ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ احملُوا قميصي هذا، ولُجوؤه إلى نُكتةِ القميصِ مسحٌ لقصّةِ قميصِ الدّمِ المكذوبِ و إثباتُ غيرِها في ذهن أبيهِ، أو هو رمزٌ

بينهما تعاقدَا عليه من زمنٍ شأنَ النّاسِ قديمًا يتّفقونَ على أماراتٍ بينهم؛ ومن حاصلِ هذا أن لا يشكَّ يعقوبُ عليه السلام بأنّهُ دُعي لمكيدةٍ من السّلطانِ أو أبنائهِ، ودلَّ لفظُ "هذا" على أنّه معيّنٌ لهم لا يجدُون غيرهُ؛ إذ هو لباسُ مسؤولٍ في الدّولةِ، وعلى كُلٍّ هو تعجيلٌ بالمسرّةِ ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ فضعُوه على وجهِ والدي يعقُوب عليه السلام يرجعُ إلى حاله السّابقِ من الإبصارِ التّام ويأتيني، وجمعتِ الآية المعنيينِ بطريقةٍ بديعةٍ بليغةٍ، وفي الكلامِ محذوفٌ وهو أنّ الإخوة قصّوا عليه حالَ أبيهم، ولعلَّ رُجوع بصرِه من إخبارِ الوحيِ إلاَّ أن يكون يوسف عليه السلام عارفًا بطبِّ العيونِ والنّفسِ، ومعنى الإلقاءِ هنا كالإلقاءِ في غياباتِ الجبِّ أي هو الجعلُ، وكونه على الوجهِ لأنَّ أباهم لا يرى من بعيدٍ لتغمرهُ البشرى دفعةً واحدةً ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وأحضرُوا إليَّ بمصرَ جميعَ آلِ يعقُوب، وهذا تمامًا لصلتِهم جميعًا، وتكليفهم هذا دون الذّهابِ بنفسهِ وراءهُ اهتمام يوسف عليه السلام البالغ بمهمّته الاقتصاديّةِ تنفيذًا لما صرّح بهِ للملكِ من كونه حفيظًا عليمًا؛ ومن جهةٍ أُخرى خفّف عنهم حدّةَ الأزمةِ بالتّنقّلِ إليهِ والعيشِ في مدينةٍ عامرةٍ.

وهكذا يسيرُ إخوةُ يوسف من مصرَ إلى أبيهم يعقوب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ وحينَ خرجتِ القافلةُ، وعبّر بالفصلِ مبالغةً في تصويرِ صورةِ خروجِهم بالبشارةِ حالَ متعثّرٍ اقتلعته الرّيح فانفصلَ مسرعًا ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ وفي طريقِهم وقبل أن يصلُوا إلى أبيه قال يعقُوب عليه السلام لمن معه: أؤكّدُ لكم بأنّي أشمُّ رائحةَ ابني يوسف، وهذه صورةٌ تقرّبُ شدّةَ لهفِ يعقُوب لرُؤيةِ ابنه حتّى وكأنَّ الهواءَ كان في تلبيةِ لهفهِ فعاجله بإرسالِ رائحته إليه؛ وهي حالةٌ بشريّةٌ عاديةٌ أو هو حسٌّ وإلهامٌ خُصَّ بهِ ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ولولا أنّكم تُخطّئونني وتنسبُونني إلى زوالِ العقلِ؛ وجوابُ لولا محذوف تقديرُه لصرّحتُ بما هو أكثرُ من هذا أو لوجدتُم أنتم ذلك كما وجدتُه، وأصلُ التّفنيدِ التّخطئة ومنه الْمُفْنَدُ المنسُوب إلى الخرفِ. ردَّ عليهِ بعضُ من معهُ: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ عجبًا في إصرارِكَ العظيمِ على حُبِّ يوسف، والعبارةُ لبست ثوبَ الخشونة مع والدٍ شأنه أن يصبح ويُمسي يُردّدُ أمرًا معيّنًا ولمدّةٍ طويلةٍ، والضّلال هنا الخروج عن الصّواب ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ وحينَ قدمَ أحدُ أبناءِ يعقُوب الذي حملَ وصيّة يوسف عليه السلام بإلقاءِ القميصِ على وجهِ أبيهِ منفّذًا إيّاها؛ حدثتِ المعجزةُ الإلهيّةُ فرجعَ يعقُوب إلى حالهِ مبصرًا، ورجوع بصرِه ناشئٌ عن الخروجِ الكلّيِّ لكوادِرِ الحزنِ والبثّ من قلبِه، وتسمية القادم بالبشيرِ دلالة على أنّه سبقَ جماعته، والإلقاءُ - وإن أُمرُوا بهِ- يمكنُ أنّ فعلهُ هنا منسوبٌ إلى يعقُوب عليه السلام أدبًا معهُ. قال يعقُوب عليه السلام لمن كانَ يلومه في اشتكائه: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ألم أخبركم بأنّي أتلقّى من الله ما لا تتلقّونه، أشارَ بهذا لما كان يعلّق فيه أمله ويفرّغُ من أجلِه بثّه وحزنه، ولعلّ الإخوةَ كانوا حاضرينَ جميعًا هنا وأدركوا في موقفٍ مؤثّرٍ أنّهم أخطأُوا في حقِّ أبيهم وتمادوا في الخطأِ فطلبُوا منه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا

اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ يا أبانا ادعُ الله أن يغفر ذنوبنا لأنّنا أخطأنا في حقّه واعفُ عنّا فلقد أخطأنا في حقّك أيضًا، ولم يكتفُوا بتبشيرِ يوسف عليه السلام بأنّ الله سيغفرُ لهم لإدراكهم أنّ كلّ معصيةٍ تلزمُها توبة خاصّة. أجابهم يعقُوب عليه السلام ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ أعدُكم بأن أستغفر الله لكم، واستغفارُهُ في الحالِ بدلالةِ الفحوى ويتجدّدُ في المستقبل طمعًا في محوِ ذنبِهم تمامًا لعظمه، أو جعل استغفاره لهم بالتّأجيلِ دون يوسف عليه السلام طلبًا لأوقاتِ العبادةِ وأمكنتها كالسّحرِ والمسجِد؛ أو أمهلهم تربيةً لهم بأنَّ العفوَ عن الذّنبِ المتمكّنِ القديمِ لا يُنالُ في استغفارٍ عابرٍ لا يُعلم ثباتُه وصدقُه؛ وليس قبل أن يستغفر لكم من تضرّرَ بالأولى كابنيهِ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إنّ الله واسع المغفرةِ عظيمُ الرّحمةِ، وأكّدَ الجملة بضميرِ الفصلِ تقويةً للخبرِ، وفي هذا الموقفِ تذكيرٌ عظيمٌ لنا بخطرِ الوقوعِ في المعصيةِ ولو معَ نيّةِ التّوبةِ منها؛ لأنّ التّوفيق إليها بيدِ الله لا في إرادةِ العبدِ، فهؤلاءِ إخوةُ يوسف عزموا بعدَ كيدِ يوسف عليه السلام توبةً فلم يتمكّنوا إلى هذهِ اللّحظةِ، أضف إلى ذلك أنّهم لم يجدوا في المعصيةِ ما زيّن لهم الشّيطان وجودهُ بل وجدُوا شقاءً وعنتًا. وقد ضرب النبيان الكريمان: يعقوب ويوسف عليهما السلام أروع الأمثلة في العفو والصفح؛ فيجدر بالمسلم أن يتخلق بخلقهما في العفو و إقالة العاثر والمخطئ في حقه.

١٠. إيواء يوسف عليه السلام أبويه إليه، وتحقق رؤياه، وذكر فضل الله عليه

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾

وهكذَا يرحلُ آلُ يعقُوب عليه السلام إلى ابنِهم يوسف بمصرَ ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ وحينَ دخلُوا إلى مكانِ وجودِ يوسف عليه السلام، واللاّفتُ في هذهِ الرّحلات قضيّةُ الأمنِ السّائدِ؛ فلم يحكِ القرآن شيئًا من تخوّفاتهم؛ خاصّةً وأنّ فترةَ القحطِ أدعى للاعتراضِ والنّهبِ وكأنَّ مصرَ نجحت في تأمين أقاليمها؛ ويُؤيّدُه ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ الذي سيذكُره ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضمَّ يوسف عليه السلام إليه أباهُ يعقُوب وأمّه؛ وقال "أبويه" على طريقِ التّغليبِ، وتضمّنت العبارةُ معنى التّحضينِ الشّديد ومعنى إكرامِهما بإقامةٍ جيّدةٍ، وحاول كثيرٌ من أهلِ التّفسير تأويل المثنّى بأنّه أبوهُ وخالتُه تزوّجها بعدَ أمّه غيرَ أنّ الوقوف على ظاهرِ المعنى أولى، والجديرُ بالمعرفةِ أنّ أسلوب القرآنِ في القصصِ ذكرُ ما فيهِ الفائدة فحسبُ؛ فكما اكتفى

بذكرِ الأمّ في لفتاتٍ استغنى كُلّيةً عن زواجِ يوسف وشأنه معه. ويظهرُ أنّ يوسف عليه السلام استقبلهم خارجَ المدينةِ ليُناسب أنّه: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ ادخلوا مدينةَ مصرَ آمنينَ من القحطِ والفقرِ وكلّ سوءٍ إن شاءَ الله، ودخولهم محقّقٌ و إنّما أوردَ المشيئةَ للأمنِ فيها وقدّمت للفاصلة أو وردت للتّبرّك والتّأدّب مع الله، والأمرُ بالدّخولِ بعدَ الدّعوةِ وتشفيعُ ذلك بذكرِ الأمنِ تضمّن إذنًا بالاستيطانِ فيها ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ويأخُذ يوسف عليه السلام والديهِ إلى مكانِ حُكمه ويجلسُهما على صدرِ مجلسِ السّلطةِ التي أنيطت به، وليس على كرسيّه الخاصّ لأنّهما اثنان ولأنّه لا يُخوَّل لغيرِه، والتّعبيرُ بالرّفعِ هنا دقيقٌ شمل معنى شدِّ يديهما إليهِ لكبرِهما ومعنى تعظيمِ مقامهما إذ ربّما المجلس على مستوى الأرض، ولا يُعدُّ الخرور الآتي عقوقًا حينَ قَبِله يوسف لأنّه ناشئٌ عن أخلاقه العالية هذه ومكانِه الرّفيعِ الذي قدّرهُ الله له ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ و انحنى جميعُ من حضرَ من الأهلِ في ذلك الموقفِ تعظيمًا لمقامِ يوسف عليه السلام الذي شرّفه الله به، أو السّاجدون الأبوانِ والإخوةُ فقط مناسبةً للرُّؤيا، وهو في حقيقتِه إكبارٌ لمقامه والله أعلمُ بكيفيّته، إلاّ أنّه لا يمكنُ بحالٍ أن يكونَ سجودَ تعبّدٍ لذاتِ يوسف عليه السلام، وقيل: "لهُ" أي لله وفيه تكلّفٌ، والواو لا تُفيدُ ترتيبًا فيظهرُ أنّ الخرور كان قبل الرّفعِ. وتوجّه يوسف لأبيه عليه السلام يقول له: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ أبتاهُ هذا هو تفسيرُ رُؤياي التي شاهدتُها في الصّبا، ونداؤُه بلفظِ الأبوّةِ وهو في مقامِ السّلطةِ رسالةٌ لنا بأنّ أمثال هؤلاءِ العظماءِ رُفعوا برِفعةِ أخلاقهم وتواضعهم. ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ قد وقعت عيانًا صادقًا بإذنِ الله، كأنّه قال: ليست أضغاث أحلامٍ، وعودتُنا إلى بدايةِ القصّةِ حينَ أمرَ يعقُوب عليه السلام ابنه بأن لا يقصَّ رُؤياهُ على إخوتِه؛ يجعلُنا على إحساسِ يوسف بقيمة نصيحةِ أبيه بالكتمِ وتجنّبِ كيدِ الإخوةِ؛ وتعاطفٌ معه في قوله: ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ وقد أكرمني الله بالخروج من السّجنِ إكرامًا حسنًا صرتُ بهِ في المكانِ الذي ترونني فيهِ؛ وتضمّن هذا أنّه حكى لهم وقائع السّجنِ للعبرة، وأحسن بي أي لي أو تضمّن معنى لطفَ، و اقتصرَ على ذكرِ السّجنِ دون الجبِّ حفاظًا على خواطِر إخوته بعدَ العفوِ عنهم؛ ولأنَّ موضعه أشدّ بالنّظرِ إلى طولِ مدّتِه؛ ولأنّ ارتقاءهُ كان منه، وخرجَ بعضُهم عن كُلّ هذا فأوّل المعنى بأخرجني من الضّيقِ إلى الفرجِ ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ وجاء الله بكم من الباديةِ فشاءَ بقدرته أن نجتمع هنا في مدينةِ مصرَ، وسمّوا بدوًا لأنّهم بادُون وظاهرُون لا يحجُبهم عمرانٌ ولا تنغلقُ عليهم أبوابٌ، وكلامُ يوسف هذا عدٌّ لبعضِ النّعم ومنها التّحضّر بعد البداوة إذ هي مظنّة العيش الحسن ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ حدث كلّ هذا الابتعاد بيننا بعدَ أن فرّقَ إبليسُ بيني وبينَ إخوتي، والنّزغُ الوسوسة استعيرَ من نزغ الدّابةِ لحملها على الاستجابةِ في الجريِ، وهذهِ إشارةٌ إلى فتنةِ الجبِّ؛ ويتجنّبُ يوسف هنا أيضا ذمّ إخوته وجرحَ خواطرِهم بأنّهم هم السّبب في نفيه تربيةً لنا بأن نمحوَ آثارَ الخطأِ بعدَ الاعترافِ ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ إنّ الله مُريدٌ لكلّ ما جرى من أحداثِ قصّةِ يوسف عليه السلام بتقديرٍ

لطيفٍ عجيبٍ، ومعنى اسم الله اللّطيفِ هنا أنّ وراءَ القصّةِ عجائب دقيقة ونفائس قدّرها الله لمن تأمّلها، وقدر بعضهم المعنى: لطيف التدبير لما يشاء من الأمور ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ إنّ الله هو صاحبُ العلمِ الكامل والحكمةِ المطلقةِ.

وهنا تنتهي تفاصيلُ القصّةِ بكلماتٍ قالها يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ يا ربِّ قد تفضّلتَ عليَّ بملكٍ واسعٍ، وقوله "من الملك" ليس تقليلاً وهي بمعنى أنت مالكُ الملكِ كلّه أعطيتني منه، ومن تمام التّوسّل أن قدّمَ الثّناءَ وسيأتي الدّعاء ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وأعطيني علمَ تفسير الرُّؤيا، وتأويل الأحاديث يشملُ فهم كُلِّ كلامِ نبوّةٍ أو حكمةٍ ونحو ذلك، ولم يعظّم -وهو في مقامِ السّلطةِ- أهل الفضل عليهِ لأنّه يعلمُ أنّ رد الفضلِ إلى الله وحدهُ وبالخصوص في هذا المقامِ أولى وأوجب ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يا مبدع السّموات العلا والأرض الشّاسعة أنت الذي اتّخذتك وكيلاً على كُلِّ أموري الدّنيويّةِ و أنت الذي تنفعني في الآخرةِ، وهذهِ المعاني جديرٌ بأن يحفظَها كلّ من رغبَ في حظوظِ الدّنيا ومناصبها فوفّقه الله؛ لئلاَّ يغترَّ بذلك فينسى مستقبله المحتُوم، ولأجلِ هذا أتمَّ يوسف كلماتِه بقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أمتني على الإسلامِ الحقيقيّ لكَ؛ طلبَ الوفاة على الإسلام ولم يطلب تعجيل الوفاة، ويعني أنّه كان مسلمًا وطلبَ الدّوام على إسلامه والثّبات عليه خوفًا من عوارضِ الشّرّ كنزغِ الشّيطانِ وفتنةِ النّساءِ وغيرِها، والإسلامُ وحدة الرّسلِ أجمعين ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ واجعلني ضمنَ عبادك الصّالحينَ في الرّضوانِ والجنّة، وطلبُه هذا وراءهُ آيةٌ عظيمةٌ من درجةِ الخوفِ والرّجاء عند الأنبياءِ، وهذه المبادئ التي تشرّبها توحي بذلكم التّرابط المتين بينَ تحقيق المكسبِ الدّنيويّ والطّمع في الفوزِ الأخرويّ؛ كما تُؤذنُ بأنّ سياسةَ الأمورِ لم تصُلح إلاَّ لأنّ صاحبها عاشَ يترقّبُ الموت ويخشى المصير.

١١. إعراض أكثر الناس عن اتباع الحق، وتوعدهم بالعقاب الإلهي

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)﴾

وبعدَ قصّةِ يوسف عليه السلام يقيمُ الله برهانًا على صحّةِ رسالةِ محمّدٍ ﷺ ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ تلك القصّةُ التي أوحينا بها إليكَ يا مُحمّد ﷺ من جملةِ أخبار الغيبِ التي خصّصناها لكَ دون سائر قومك أمارةً على أنّك رسُولٌ يوحى إليكَ ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ولم

تشـهد أيّها الرّسُـول ﷺ زمان إخوةِ يوسـف عليه السلام إذ اتّفقُوا أن يلقُوا أخاهم في غياباتِ الجبِّ ثمَّ يحدث لهم ما يحدث مع أبيهم، و إنّما علمت ذلك كلّه بمحضِ الوحيِ؛ فهذا ردٌّ على مَن كذّبه مِن قومه كأنّه قال: من أينَ له أن يعلم هذا وهو لم يحضـرهُ ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْـتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ومهما اجتهدت أيّها الرّسُول ﷺ في دعوةِ النّاسِ فادرِ بأنّ أغلبيّتهم لا يُؤمنون بك، وهذه تسليةٌ لقلبِه ﷺ لئلاَّ ييأس؛ وليس في الآية نهي له عن الحرص على إيمانهم بل عليه الاجتهاد فيهِ مع اعتقادِ أنّ الأجر على التّبليغ هو الأصل لا فائدة إيمانِ النّاسِ التي ترجعُ إليهم ولا يُسـأل المبلّغ عنها ﴿وَمَا تَسْـأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ولستَ يا مُحمّد ﷺ تطلُب من قومكَ أيّ عوضٍ مادّيٍّ على تبليغِ القرآن؛ فيكونون إنّما تركوا دعوتك من أجلِ تكلفةٍ لا يُطيقُونها ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ لأنّ القرآن الذي تدعوهم إليه نورٌ لجميعِ النّاس، وهذا يقتضـي أن تكون الدّعوةُ إليه في سبيلِ الله لئلاَّ يحرم أحدٌ نوره.

ثمّ يبيّنُ الله للرّسُـول ﷺ بأنّ قومك لم يكفُروا بآيةِ حصـولِ الوحيِ لك و أنت أمّيٌ فقط بل: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ وكم مِن الآياتِ الدّالةِ على عظمةِ الله في آفاقِ السّماوات وفي سطحِ والأرضِ وأغوارِها يراها الناسُ دائمًا ولا يتأمّلون فيها، و"كأيّن" اسمٌ يدلُّ على كثرةٍ، والمرور كنايةٌ عن تحقّق المشـاهدةِ وتكرّرها وإن لم يقع ذهابٌ و إيابٌ، أو السّـياقُ بمعنى: كفرُوا بكونك رسـولاً وأشـركُوا بالله لأنّهم أعرضـوا عن التّأمّل في الآياتِ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْـرِكُونَ﴾ و أكثرُ الذينَ يَظهرُون من قومكَ مؤمنينَ بالله الخالقِ الرّازق في الحقيقةِ هم مشـركون، لاعتقادِهم أنّ الآلهة تقرّبُهم إلى الله زلفى أو لتشـبيهم الله بالخلقِ أو لعدمِ إخلاصـهم في العبادةِ ونحوِ ذلك، وهذا الأسلوب لعلّه من تأكيدِ الشّيءِ -وهو الإيمان- بما يُشبه ضدّهُ -وهو الشّرك- على وجهِ التّهكّم ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِـيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أتركَ هؤلاءِ المشـركون التّفكّر فضـمنوا بأنّه لا يغشـاهم عذابٌ إلهيٌّ بسـببِ شـركهم، والآيةُ في قومِ الرّسُـول ﷺ المشـركينَ وتعمُّ غيرهم، والعربُ تؤنّثُ ألفاظَ المصائب كالطّامةِ والحاقّة والكارثة لعلّه استنادًا لتشاؤُمهم من الجنس المؤنّث ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْـعُرُونَ﴾ أو يُباغتهم قيامُ السّـاعة بأهواله وهم غافلُون عنه لا يتوقّعُونه، والاسـتفهامُ واردٌ للتّوبيخ.

١٢. نصرة الله لرسله الداعين لسبيله، والقصص في القرآن عبرة

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْـتَيْأَسَ الرُّسُـلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾

وبعدَ ذكرِ إعراضِ النّاس عن الآياتِ يُلقّن الله الرّسول ﷺ مبادئ ثابتة على الحقّ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ قل يا مُحمّد ﷺ لمن أعرض عن دعوتك: منهجي هو ما أنا عليهِ، والسّبيلُ اسمٌ يُذكّر ويُؤنّثُ استعارتُه شائعةٌ للهدايةِ الموصلةِ إلى الجنّة؛ وإضافتُه وردت لله وللرّسُول كما هنا وللمؤمنينَ وكلّ ذلك تشريفٌ، والإشارةُ إليه تنزيلٌ له منزلةَ المحسوسِ البيّن، ويُبيّنُه في قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أدعو أنا و أتباعي مِن المؤمنين النّاسَ إلى دينِ الله الحقّ على معالمَ واضحة لا التباس فيها ولا اعوجاج، ووصفُ المعالم والحججِ بالبصيرةِ مجازٌ، وفي الآيةِ ما دلَّ على وجوبِ الدّعوةِ على المستطيع قدر المستطاع اقتداءً بالرّسُول ﷺ ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ و أنزّه الله عن كُلّ شِركٍ جعله الخلقُ لهُ، و إنّي مؤمنٌ به ولستُ من أهلِ الشّرك أبدًا، و"سُبحان" مصدرٌ نابَ مكان الفعلِ مبالغةً في الكلامِ؛ وأصلُه أسبّح الله سبحانًا.

ويردُّ الله على الذين أنكروا الرّسالة في البشرِ أو استبعدُوها وقصرُوها في الملائكة بقوله لمحمّدٍ ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ جميعُ المرسلينَ قبلكَ يا نبيَّ الله الخاتِم كانوا رجالاً من أهلِ القرى يتلقّون الوحيَ من الله، واستدلَّ بعضُ المفسّرينَ بالآيةِ على أن لا رسالة في النّساء ولا في أهل البوادي؛ لأنّ في النّساء ضعفًا في تحمّل تبليغها وفي أهل البادية طبع الجفاءِ الذي يتنافى وسماحتها؛ ويُبحث بأنّ يعقُوب عليه السلام جاء من البدوِ، وأجيب عن ذلك: بأنهم قرويون لكن كانوا في مواشيهم في البادية وجاءَ بهم منها، وقيل: على تقدير أن يعقوب كان من أَهل البدو فإنما تحول إليها من القرية بعد التبليغ إذ لم يبعث نبي من البدو، واستدل بالآية أيضا على أنّه لا رسُول من الجنّ مطلقًا استئناسًا بفحوى الاستثناءِ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أولم يرغب هؤلاءِ المعرضون عن دعوتك أيّها الرّسُول ﷺ في السّيرِ على الأرضِ لينظرُوا نظرَ اعتبارٍ وتأمّلٍ ويتساءلُوا: لماذَا حلَّ بمن قبلهم من العذابِ والدّمارِ ما حلَّ فيخافُوا وينزجرُوا؟ واستفهامُ الآيةِ سيقَ للتّوبيخ ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وإنّ رضوان الله والفوز بالجنّةِ أفضلُ عندَ مَن اتّقى وآمن مِن كُلّ عرضٍ دُنيويّ زائلٍ، أو جاءَ بهذا للدّلالة على معنى أنّ الإذعان للحقّ أسلم للمتّقي و أفضل مِن أيّ مكابرةٍ وراءها غرضٌ دنيويٌّ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فهلاَّ تدبّرتُم أيّها النّاس في عاقبتكم جيّدًا لتصيبُوا الحقَّ ولا تخدعوا كما خدع من قبلكم، وهذا أسلوبُ خطابٍ بعدَ غيبةٍ لجلبِ الاهتمام ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ وكلّ نبيٍّ في قومه كان يدعُو إلى الله على بصيرةٍ ويصبر إلى درجةِ أن يظنَّ

بأنّ طريقَ النّصرِ والفرجِ انغلقَ أمامه بسببِ شدّةِ التّكذيب، والاستيئاسُ مبالغةٌ في اليأس، والظّن بمعنى اليقين، ومعنى استيأس: شارف على اليأس من نصر الله، لأنه لا تصح نسبة اليأس إلى الرسل حقيقة، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، وقيل: استيأس الرسل من إيمان قومهم بسبب طول المدة وشدة عناد أقوامهم؛ وعلى هذا فالاستئياس على حقيقته ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ فيأتيه نصرُ الله وفرَجُه فيُنجّيه الله هو ومن اتّبعه من العذابِ الذي يلحقُ قومه ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ وإنّ عذاب الله لا يتخلّفُ أبدًا عن مستحقيهِ من أهلِ المعاصي والكبائر إذا وجبت ساعتُه، وإضافة النّصرِ والبأس لضميرِ العظمةِ أفادَ تعظيم شأنِ الموعودِ به ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لقد كانت في قصّةِ يوسف عليه السلام وقصص غيرِه من الأنبياء تبصرةٌ تنفعُ أصحاب العقولِ النّيّرة، ومعنى هذا أنّ الذي أنجى يوسف من ظلمةِ الجبِّ ومن فتنةِ الجنسِ ومن قساوةِ السّجنِ قادرٌ على نصرةِ محمّدٍ ﷺ وكُلّ داعٍ إلى الله بشرطِ أن يتّقِي ويصبر ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ لم تكن قصّتُهم أقاويل تُنسجُ أو أساطير تُخترع، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ العبرةَ إنّما تحصُل بما كان قصّةً و اقعيّة؛ والخرافات من القصص لا يستمعُ المرءُ لها إلاّ بخلفيةِ الغرابةِ واستبعادِ تحقّقِ مثلها فلا يستفيدُ منها ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وإنّ هذا القرآن جاء مصدقا للحق الذي في الكتبِ السّماوية التي لا تزال منها بقيّةٌ في المتناول في عهدكَ يا مُحمّد ﷺ؛ تحكي الصّدق والحقّ، وجاء تفصّيلا لكلّ شيءٍ احتاجَ إليه النّاسُ من أمورِ دينهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وإنّ كتاب الله لهو طريقُ الهدايةِ الأقوم لكلّ النّاسِ وهو سببُ رحمتهم لينجوا من عذابِ الدّنيا والآخرةِ، و إنّما خصّ ذلك بأهلِ الإيمان لأنّهم هم المنتفعون، وجعلهُ القصص ذات الهدى والرّحمة على سبيلِ المبالغة.

تفسير سورة الرّعد

سُــورةُ الرّعدِ مكّيّةٌ على المشــهور؛ وقيل: بها آياتٌ مدنيّةٌ؛ وقيل: أغلبُها مدنيّةٌ وبها آياتٌ مكّيةٌ، عددُ آياتها ثلاثٌ وأربعون آية، وسُــمّيت باســمِ "الرّعد" ولم يســمع لها اســمٌ آخر؛ وذلك لورُود الحديثِ فيها بالخصوص عن هذهِ الآية الكونيّةِ العجيبةِ.

ضمّت السّورةُ كغيرِها من السّورِ المكّيّة أصول التّوحيدِ؛ وتنزيه الله عن الشّركِ؛ ومعرفته من خلال دلائلِ قدرته وبديعِ صــنعِه؛ كما تضــمّنت إشــاراتٍ إلى البعثِ والجزاءِ، وتخلّلَ ذلك كلَّه محاجة المعرضينَ وتهديدهم بالضّرِ وكشفُ حقيقةِ الحياةِ الدّنيا لهم لئلاَّ يغترُّوا بها؛ مع تبيينِ الحقِّ لهم بضربِ الأمثالِ وتنويعِ الحججِ؛ في عباراتٍ بليغةِ المعاني عُرضت في قوالبَ بهيّةٍ رائعة.

١٣. القرآن حق أنزله الله، ومظاهر قدرة الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّــمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْــتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَــخَّرَ الشَّــمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَــمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّــلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِــيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِــي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِــنْوَانٍ يُسْــقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّــلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾

﴿المر﴾ الحرُوف المقطّعةُ في فواتح بعض سور القرآن من المبهماتِ؛ وقد سبقَ الحديثُ عنها، ولعلّها محلُّ إعجازِ النّاسِ بأنّهم لا يســتطيعون الإتيان بمثلِ هذا القرآن ولو كانت مادّةُ الحروف بينَ أيديهم؛ ولذلك كثيرًا ما يردُ ذكرُ الوحي بعدها ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ إشــارةٌ إلى ما يُتلى من السّــورةِ بأنّها آياتُ القرآنِ التي فاقت نظمًا كلّ كلام وأعجزت بلاغةً كلّ بليغٍ؛ أو إشــارةٌ إلى آياتِ القرآنِ كلّه، واســتعمالُ إشــارة البعيد "تلك" للقريبِ فيه نكتة التّعظيم، وقيل: المراد بالكتاب التوراة والانجيل، ليناســب أن يعطف عليه قوله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ وهو الكتابُ الذي أُنزلَ من عندِ اللهِ عليكَ أيّها الرّسُــول ﷺ يقينًا بلا أيّ شــكٍّ؛ و إنّه الحقُّ وحدهُ لا غيرُه من أســاطيرِ النّاس، ولفظ الرّبوبيّةِ هنا أفاد تلطُّفًا مع حاملِ الرّســالةِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ غير أنّ كثيرًا من النّاسِ لا يُصــدّقون بكونِ القرآنِ من عندِ الله معجزًا بما احتواهُ.

وحينَ نبّه إلى عدمِ إيمانِ أكثرِ النّاسِ عرضَ هنا دلائل عظمته التي يرونها جميعًا؛ إذ بمعرفتِه حقَّ المعرفةِ يُصدّقُ كلامه ويخلص في عبادته ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ إلهُكم أيّها النّاس الله الذي خلقَ فوقكم سبعَ سمواتٍ مرفوعاتٍ عن سطحِ الأرضِ بغيرِ أعمدةٍ اتّخذها للرّفعِ وذلك مشاهدٌ تعلمونه؛ والرّفعُ هنا مجازٌ عن الإمساكِ في علوٍّ، والنّفيُ لاحقٌ بالعمدِ والرُّؤيةِ؛ فَلا يصحُّ قول مَن قال: رُفعت بعمدٍ لكن لا تُرى؛ و"هاءُ" ترونها للسّمواتِ، والعَمَدُ اسمُ جمعٍ أو جمعُ عِمادٍ وهي الدّعائم ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ولمّا اكتملَ إبداع الله العظيم كانَ هو الملك المتصرّف على الكونِ كلّه، والاستواء التّمكّن والاستيلاء، وعبّر بالعرشِ مجازًا عن الملك والاستيلاء، تقريبا لأفهام خلقُه الذين يربطون المُلك بعرش المِلك وحاشيتِه في قصرِ الحُكمِ، والمرادُ بالعرش عامّة المُلْكِ؛ إذ لا يُسمحُ بنظامٍ في مملكةِ الحُكم إلاَّ بما يُدبّرُه صاحبُ كرسيّ الحُكمِ، كما عُهدَ عن العربِ تقولُ: اعتلى فلانٌ العرش تعني توطّدَ ملكُه وثبت؛ وذلك مِن الكناية، وإن قيلَ بوجودِ عرشٍ حقيقيٍ خَلَقَهُ ونسبَ إليهِ سلطتَهُ؛ فلا يلزمُ أنّهُ جلسَ فيهِ -تعالى الله- وإنما هو على حدِّ قولنَا "بيتُ الله أو ناقةُ الله" ولا نُريدُ سكنَ أو ركبَ، والقول باستقرار الله على العرش استقراراً حقيقياً يقتضي أن يكون الله تعالى جسما متحيزا في مكان، وهذا فيه تشبيه لله بخلقه، على أن وجود الله تعالى سابق لخلق الزمان والمكان وكل المخلوقات، ولم يُحْدِث خلقها تغيرا في ذاته ولا صفاته ، وعلى كُلٍّ تعالى الله عن جميعِ صورِتشبيهه بالخلقِ، لأنه القائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وذلّل الله الشّمس والقمر حسبَ نظامٍ دقيقٍ؛ ميسّرًا من خلالِ ذلك للإنسانِ الانتفاع بمنافعِ الشّمسِ كالضّياءِ والطّاقةِ وبمزايا القمرِ كالنّوروحسابِ الشّهور، والتّسخيرُ التّذليل ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ كُلٌّ من الشّمسِ والقمريؤدّي دورًا خُلق من أجله إلى أن يحينَ أجلُ فنائهما، والجريُ هنا مستعارٌ لحالِ الكدِّ في المهمّة، واللاّمُ بمعنى "إلى"، وفسّر بعضٌ الأجل المسمّى هنا بالدّقة التي ينتهي إليها كُلٌّ منهما في دورته بناءً على أنّهما مسخّرانِ، وجاء "رفع؛ استوى؛ سخّر" بالماضي لأنّها أفعال قد تمت في الماضي؛ وعبّر بالمضارع عن رعاية خلقه الدّائمة فقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يُسيّرُ الله كلَّ أموركم ومصالحكم أيّها النّاس من رزقٍ وإحياءٍ وإماتةٍ ونحوِ ذلك، وينوّعُ لكم في دلائل معرفتِه؛ و"الآيات" كونيّةٌ ويجوزُ أن يراد بها آيُ القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لينظُرَ تصديقَكم بيومِ البعثِ الذي تُعرضون فيه على الله للحسابِ؛ وعلى هذا فإن "لعلّ" تضمّنت معنى الاختبارِ أو هي للتّعليل أي لكي تُوقنوا بلقاءِ الله، ومعناهُ إن استيقنتم بأنّ الله قادر على رفعِ السّماء وتسخيرِ الشّمسِ والقمرِ ونحو ذلك استيقنتم بأنّه قادرٌ على بعثكم وحسابكم ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ والله هو الذي جعل صورةَ الأرضِ مبسوطةً؛ وإن كانت في حقيقتها كُرويّةً فذلك بحكم الكلّ لا الجزء؛ وليس في وسعِ الإنسانِ رُؤية كرويّة الأرضِ بأمّ عينيه، والمعنى أنّه جعلها في الأصل بساطًا تسهيلاً لعيش الإنسانِ فيها ولو شاءَ لجعلها كلّها جبالاً فتصعب الحياةُ عليها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ وأراد أن

تكونَ خلال الأرضِ المبسوطةِ جبالٌ تُرسيها لئلاَّ تميدَ بالخلقِ بانجرافٍ ونحوِه؛ وفي الآيةِ حذفُ موصوفٍ وهو الجبال دلّت عليه صفةُ الرّسوّ. كما جعل فيها أنهارا تسيرُ لمنافعِ النّاسِ المختلفة، وفي تفصيلِ آيتي السّمواتِ والأرضِ هنا تناسقٌ مع ما وردَ في ختام سورة يوسف في: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ﴾، وكثيرًا ما تُذكرُ الجبالُ للدّلالةِ على قدرةِ الله دون غيرِها من المخلوقات العجيبةِ لما في عظمتها من أثرٍ على النّفس، وبينَ ذكرِ الجبالِ الرّواسي والأنهارِ الجارية مقابلةٌ لطيفةٌ ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ومن كُلِّ أصنافِ النّباتِ التي خلقَها الله قد جعلَ ذكورةً و أنوثةً ليتمَّ التّلاقح بينهما، وهذه حقيقةٌ علميّةٌ أثبتتها المخابرُ المعاصرة لتكون شاهدةً على صدقِ القرآنِ من قرُونٍ، واكتفى بذكرِ الثّمراتِ دون شجرِها لأنّها محلُّ المنّةِ مع العبرةِ[٨]، وبما أنّ واحدَ الجنسِ يُقال له زوجٌ عبّر بالمثنّى "زوجين"؛ وجعله منكّرًا لإفادةِ التّنويعِ؛ ووصفهُ بـ"اثنينِ" لتثبيتِ الامتنان، على أنّه وقف بعضُهم على "الثّمرات"؛ وعدَّ ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ استئنافًا ليضمَّ آية الحيوانِ كذلك؛ وهو تفسيرٌ وجيهٌ لهُ نظائرُ من القرآن كقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ ٦ إلى ٨] ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يُدخلُ النّهارَ في اللّيلِ فيصيّرُ الضّياءَ ظلاماً، وفي الآيةِ تقديرٌ جائزٌ حذف لأنه معلوم وهو: ويغشي النّهارَ اللّيلَ؛ ولعلّه اكتفى بالأوّل لأنّه أظهر ولأنّ تجدّده المفهوم من المضارع لا يكونُ إلاَّ بعد حدوث مقابله، وذُكرت في سياقِ آيةِ مدِّ الأرضِ مع أنّها آيةٌ سماويةٌ لأنّ أثرها أرضيٌّ واضحٌ، والغشاءُ الغطاء استعيرَ لدخولِ جسمٍ في جسمٍ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إنّ فيما سلف من آياتِ الكونِ أو في آية الغشيانِ بالخصوص دلائل عظيمة لأصحابِ التّفكّرِ والتّأمّل ليعرفُوا الله، وكونُ الآياتِ وسطَ كُلّ آيةٍ باعثٌ بذاتِه على الاستغراقِ في النّظرِ، ولم يقل: فكّرُوا أو يُفكّرُون وعبّر بما أفادَ تكلّفًا على صيغةِ المضارعِ دلالةً على أنّه تفكّرٌ بجدٍّ وتكريرٍ.

ويتتابعُ الكلامُ في شأنِ الآياتِ الكونيّةِ ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ وجعل الله في الأرضِ الممدودةِ أقسامًا متجاورة؛ وظهورهذا التّجاورمبنيٌّ على الاختلافِ بينها، إمّا من حيثُ الخصوبة والبوار، أو أنّها أقسامٌ لمنتوجاتٍ مختلفةٍ كلٌّ بلونه وطبعه، وذكر بعضٌ أنّ المعنى في الأرض قُرى متجاورةٌ ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ ومن تلكم القطعِ بساتينُ العنبِ الكثيرةُ المتنوّعةُ، ولعلّه خصَّ هذه المزروعاتِ بالذّكرِ لشهرتها أو لكثرةِ منافعها ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ وفيها أيضًا بساتينُ لمزروعاتٍ مختلفةٍ كالطّماطم والقمحِ والثّومِ وغيرها؛ وبساتينُ لشتّى صنوفِ النّخلِ؛ منها ما تفرّع منهُ نخلٌ تحتهُ ومنها ما كان قائمًا لوحدِه، و"صنوانٌ" جمعُ صنوٍ وهو الفرعُ الخارجُ عن الأصلِ في جذع الشّجرةِ؛ ويردُ الصِّنْو بمعنى المثل ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ كلّ ذلك النّبات يُسقى نفسَ الماء على نفسِ

[٨] وذهب رأيُ قدامى المفسّرينَ إلى أنّ الزّوجيّة في وجودِ الحلوِ والحامض والصّغرِ والكبر ونحوِ هذا.

التّربةِ؛ غير أنّ الطّعم بينه يختلفُ من حيثُ الجنسُ فهذا تمرٌ أحلى من ذاكَ؛ ومن حيثُ النّوعُ فهذا ليمونٌ حامضٌ وذاك خوخٌ حلوٌ والماءُ واحدٌ، والماءُ وإن اختلفت طبيعتُه فهو واحدٌ من حيثُ وظيفتُه، وبناءً على أنّ الأكل يُختارُ لرائحته وشكله ونحوِ ذلك فالتّفضيلُ يعتريه أيضًا؛ فنجدُ طيّب الرّائحةِ وبديعَ المنظرِ ونجدُ العكس والماءُ واحدٌ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إنّ في الاختلافِ الموجود في الأرض وما أنبتت لَعبرًا جليلة لمن يستعملُ عقلهُ فيُدرك بأنّ ثمّةَ من يُنظّمُ هذا التّنوّع ويُبدعُه وهو الله؛ وليستِ الطّبيعةُ هي التي أوجدت نفسها بنفسها، والتّنكيرُ في "آياتٍ" للتّكثير.

١٤. إنكار المشركين للبعث ومعارضتهم لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)﴾

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وإن عجبت يا محمّد ﷺ من إنكارِهم للبعث فعجبُك صحيحٌ و اقعٌ في محلّه؛ وذلك لكونهم قالُوا: هل إذا أَكَلَنا التّراب وتحلّلنا بعد الموتِ فيهِ سنُبعثُ من جديدٍ للحسابِ؟ والاستفهامُ إنكاريٌّ أي لا يكونُ ذلك! والخطابُ للرّسُول ﷺ ويجوزُ أن يكونَ لغيرِ معيّنٍ، أو الآية بمعنى إن يكن منك تعجّبٌ فليكن من قولهم كذا؛ أو إن عجبتَ فليشتدَّ تعجّبكَ من قولهم كذا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ القائلُون بذلك هم أهلُ الكفرِ بالله صراحةً لردّهم أمرًا أثبته الله؛ واستعمالُ اسمِ الإشارةِ هنا لتهيئةِ السّامعِ لتلقّي خبرٍ في شأنِ من سبقَ الحديثُ عن صفاتِهم؛ وكذا حينَ قال: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ وأولئكَ سيجعلُ الله في أعناقِهم يوم القيامةِ أغلالاً يُسحبُون بها إلى جهنّم، و"الأغلال" جمعُ غُلٍّ وهو الطّوق الذي يلفُّ العنق، وعبّر بالجملةِ الاسميّة تثبيتًا للوقوع، وفسّر بعضُ أهلِ الخواطِر الأغلال هنا بالموانع عن الإيمان كالخذلان والشّيطان ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وأولئك سيخلّدُون في جهنّمَ أبدَ الآبدينَ جزاءَ كُفرِهم، وفي إعادته "أولئك" ثلاثًا تهويلٌ بهم، وسكتَ عن مجادلتِهم في البعثِ وبيّنَ مصيرَهم مباشرةً تقريرًا بأنّه و اقعٌ وأدلّته ساطعة؛ و إيماءً بأنّهم إنّما أنكرُوه تغطيةً للوعيدِ الذي يلحقُهم من جرّاءِ أعمالهم؛ ومناسبةً لذلك قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ ويطلبُ منك المشركون يا مُحمّد ﷺ أن تعجّل لهم العذاب الذي تتوعّدُهم بهِ استهزاءً بك واستبعادًا لوقوعه؛ وهم لا يرجون لأنفسهم قبل كلّ شيءٍ سلامةَ الدّنيا والآخرة، والمراد بيان جهلِهم وعدم وعيِهم تسليةً لقلبِه ﷺ مما يتلقّاهُ منهم، وهذا في سياقٍ عدّدَ

فيه طرق تكذيبهم واستهزائهم ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ وقد سبقتهم عبرٌ في الأقوامِ الذين أهلكوا قبلهم؛ أفلم يعتبرُوا؟ و"المثُلات" جمعُ مَثُلة وهي العقوبةُ نحو صَدُقة جمعها صدُقاتٍ، أُخذ اسمها من مماثلةِ عقوبة المجرمِ لما اقترفهُ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ والله أهلُ الصّفحِ لا يُبقي العاصي على ذنوبه بعد التّوبةِ بل يكفّرُها مهما بلغت؛ و"على" بمعنى مع، وفي هذا دعوةٌ للتّوبة ونبذِ القنوطِ، أو المرادُ هو أن الله أهلُ الإمهالِ فمع شدّةِ التّمادي لا يُعجّلُ بالعقاب ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وعذابُ الله شديدٌ لأهلِ الكفرِ والعصيانِ، واختارَ التّوكيد في الموضعينِ واستعمال عنوان الرّبوبيّة لتثبيتِ مدلولِ الكلامِ في قلبِ المخاطبِ تحتَ جناحِ الإيناسِ والتّلطّف، كما جمعَ بينَ عرض مغفرته والتّهديدِ بعذابِه ترسيخًا لمبدأ الخوفِ والرّجاء.

ثمّ يحكِي الله إحدى احتجاجاتِ الكفّارِ التي ردُّوا بها دعوةَ مُحمّدٍ ﷺ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يطلبُ الكُفّار من الرّسُول ﷺ كلَّ مرّةٍ أن يأتيهم بمعجزةٍ خارقةٍ مِن الرّبّ الذي يعبُده ويدعوهم إليه؛ والمضارع أفاد تجدّد قولهم وطلبِهم، و أفادت "لولا" بأنّهم حريصُون على حصول المعجزةِ لكن ليس ليؤمنوا، وقد جرت معجزاتٌ عديدةٌ على يده ﷺ و إنّما كان تنطّعهم بتجديد الطّلبِ وبالنّحوِ الذي يُريدُونه، وأظهرهم بعنوانِ الكفرِ تبيينًا لعلّةِ طلبهم الملحّ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ اعلم يا مُحمّد ﷺ بأنّك لستَ إلاّ حاملاً همَّ الدّعوةِ ولا يعنيك غيرهذا، و اقتصرعلى ذكرِ الإنذارِ مناسبةً لتقريعِ أولئك المكابرينَ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ واعلم أنّه قد جعل الله لكلِّ أمّةٍ رسولاً يدعوها إلى الله فيَلقَى منها ما لقيتَ؛ أولم تكن مهمّةُ الرّسلِ قبلكَ إلاّ دعوةَ أقوامهم؛ والمراد بالهداية هنا: هداية البيان، أي جعل الله تعالى لكل قوم من يبين لهم الصواب لتقوم عليهم حجة الله، وقيل: المراد بالهادي هنا الله تعالى، فبيده وحده هداية التوفيق للحق، ونكّر "هادٍ" للتّعظيم.

١٥. مظاهر علم الله تعالى

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ(٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ(١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)﴾

وبعد ذكرِ عظيم علمه وخلقِه جاء إلى دقيقه؛ مبيّنًا لطالبي الآيةِ بأنّ المبدع القدير لا يُعجزهُ طلبُكم لأجلِ أن تؤمنوا بل هو يَعرضُ عليكم ما لو تأمّلتموهُ لكفاكم للإيمان ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ الله وحدهُ يعلمُ ما تحملُ الإناثُ في أرحامها؛ إناثُ الجنّ والإنس وسائرِ الحيوان، وقبل هذا يعلم مَن تحملُ

منهنّ ومَن لا تحمل؛ ويعلمُ متى حملت وممّن حملت وكيف؛ وهل ما حملته ذكرٌ أو أنثى؛ وهل يولد كاملاً أو ناقصًا وغيرَ ذلك ممّا تعلّق بالحملِ في حينِ أنّ الأنثى الحامل نفسها قد تجهل أكثر ذلك؛ والله يعلمه مع كثرته وسرعةِ تجدّدِه، ولا ينافي ذلك ما توصل إليه العلم الحديث من القدرة عن كشف جنس الجنين بعد وصوله إلى مرحلة معينة، لأن الله يعلم ما هو أدق وأوسع من ذلك بكثير؛ كما تبين مما ذكرناه أعلاه في تفسير الآية الكريمة ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ والله يعلمُ ما ينقُص من الزّمنِ الطّبيعيّ للحوامل -إذا تحدّثنا عن عالمِ الإنسان- وهو تسعةُ أشهرٍ فيضعنَ حملهنَّ قبل ذلك، ويعلمُ ما تزيدُ بعضهنَّ من الزّمنِ، و"تغيضُ" من غاضَ الماءُ إذا غارَ في الأرضِ فنقصَ، والغيض شاملٌ لحالاتِ الولادةِ التّامّةِ والنّاقصةِ كما أنّ الازديادَ يشملُ الأمرينِ معًا؛ وعلمُ الطّبِّ اليوم قرّر ذلك[٩] ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ وكلّ شيءٍ قدّر الله فيه زمنًا أو حجمًا أو كيفيّةً وغير ذلك ليسيّرهُ عليهِ؛ فهو جارٍ وفق حسابٍ دقيقٍ لا يتجاوزُه زيادةً ولا نقصانًا ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ والله مطّلعٌ على كُلّ ما خفيَ وغاب وما ظهرَ وانكشف، وهو الكبيرُ بسلطانه العالي بقدرته على كُلّ أحدٍ، والكبر مجازٌ عن العظمةِ كما أنّ العلوّ مجازٌ عن العزّة، وجمعَ في علمه بين الغيبِ والشّهادةِ إيماءً بأنّ علمه بهما على حدٍّ سواء فالغيبُ إنّما هو الغائبُ عنّا لا عنه، وهو ما أكّده بقوله: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ لا فرقَ عند الله فيمن يخفي صوته منكم أيّها النّاس ومن يجهرُ به؛ فهو يسمعهما على حدٍّ سواءٍ لأنّه هو مَن خلق ذلك وقدّرهُ، وسُمّي إسرارُ الكلامِ قولاً على طريقِ المجازِ، وهنا تعريضٌ بالمشركين الذين يتآمرُون على الدّعوةِ ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ويستوي عند الله كذلك مَن اختفى في ظُلمةٍ في ليلٍ دامسٍ ليفعل أمرًا، ومن هو معلنٌ بفعله صراحًا في وجهِ النّهارِ، والسّينُ والتّاءُ في "مستخفٍ" للمبالغة، و"السّارب" الذّاهب مأخوذٌ من السَّربِ وهو الطّريق الواضح، وفي الآية من بديعِ الطّباقِ ما لا يخفى ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ جعل الله للإنسانِ -المفهوم من المستخفي والسّاربِ- ملائكةً تتعاقبُ عليهِ تأتيهِ مِن كُلّ جهةٍ لتسجّل أعماله؛ أو التّعقيب على العمل بكتابته، وذكرَ الأمام والخلف مجازًا عن كلّ جهةٍ، و"المعقّبات" جمعُ معقّبةٍ والتّشديدُ فيه للمبالغةِ وأصله عاقباتٌ؛ اشتقَّ من العَقْبِ وهو مؤخّرةُ الرّجل؛ سُمّيت بهِ الملائكةُ لتعاقُبها بحرصٍ شديدٍ على أعمالِ العبادِ باللّيلِ والنّهارِ[١٠] وعلى حفظِه أيضًا كما قال: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ تحفظُه الملائكةُ بأمرِ الله مِن أمرِ الله، فالله كلّفها بحفظِ الإنسانِ من شتّى المخاطرِ كمسّ الجانّ وضررِ الهوام ومختلِف العاهات، وما لم يكلّفها بالحفظِ منه لم تحفظ الإنسان فيه؛ وهو معنى ما سيأتي من قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ

---

[٩] واختُلف كثيرًا في معنى الآية واختيارُنا هذا ناسب المعنى اللّغويّ وأيّدهُ قولُه: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ..﴾ الآية [الحجّ ٥].

[١٠] وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ فيجتمعون في صلاة الفجر..." رواهُ الربيع، ب: في فضل الصلاة وخشوعها، ر: ٢٨٩(١/١٢٠).

سُــوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِــهِمْ﴾ إنّ الله لا يبدّلُ أحوال ناسٍ من حسـنٍ إلى سـيّئ كحالِ الأمنِ يبدّلُه بحالِ الخوفِ؛ حتّى يبدؤوا بتغييرِ حالِهم بأنفسـهم كأن يكونوا محبّينَ للسّـلمِ فيحملوا الأحقاد، والعكسُ جائزٌ فالله يُغيّرُ من سـيّئ إلى حسـنٍ من وجدَ في نفسـه داعيًا إلى ذلك ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُــوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ وإذا قدّر الله على ناسٍ أن يلحقهم ضـررٌ أو عذابٌ فلا يُنجيهم مِن ذلك أحدٌ مهما كانَ وبأيّ وسـيلة كانت، ولعلّ في هذا أيضًـا جوابا للذين يصـرّون على عدم الإيمان مدّعينَ بأنّهم إذا رأوا أماراتِ العذابِ أذعنوا ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ وليس لأولئك أحدٌ يقوم على أمرِهم فيجلبَ لهم الخيرَ ويدفعَ عنهم الشّـرَّ؛ وفي هذا زيادةُ تحذيرٍ وقطعُ أملٍ في وجود مسـلكٍ للنّجاةِ بدونِ الإيمان على اختيارٍ، ومعنى من والٍ: من يلي أمرهم ويقيهم عذاب الله.

١٦. دلائل قدرة الله تعالى واستحقاقه الخضوع والانقياد

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥)﴾

وهكذا تناولت السّورة مجادلة الكفّار حينًا وبسطَ دلائل قدرةِ الله حينًا آخر تليينًا لقلوبهم لعلّها تذّكرُ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الله هو الذي خلقَ البرقَ وجعلكم ترونه أيّها النّاس فتنبهرون به بينَ طامعٍ راجٍ خيرًا وراءهُ بالغيثِ النّافع وبينَ خائفٍ من عواقبه إن اشتدَّت بعدهُ صواعق أو أمطارٌ طوفانيّةٌ، أو الخوفُ والطّمعُ صادرانِ معًا من كُلّ راءٍ للبرقِ ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ والله هو الذي يكوّن السّحبِ ويسيرها منذُ ابتدائها بخارًا يتصاعدُ من البحارِ إلى أن تكون في السّماءِ سُحبًا ثقيلةً كالجبال، وسُمّي السّحابُ سحابًا لانسحابه وانجرارِه ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ والرّعدُ؛ وهو الصّوتُ النّاشئ عن تفاعلاتٍ عند تكوّنِ السّحب؛ ينزّه الله ويُقدّسه ويُثني عليه بذلك الصّوتِ وإن لم يظهر لنا معناه، وسُبحان الله الذي جعل قبل المطر آيةً صوتيّةً وهي الرّعد وآية مرئيّةً وهي البرق لتستعدَّ له النّفوس فلا يبقى أحدٌ عنه غافلاً ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ والملائكةُ تنزّهُ الله أيضًا وتقدّسه خوفًا من عذابه وتعظيمًا لمقامه، وقيل: هاءُ "خيفته" للرّعد وهو ضعيفٌ ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ والله هو الذي يأذنُ للصّواعقِ؛ وهي الشّهب النّارية النّازلة نحو الأرضِ، فيُسقطُها على من شاءَ أن يهلكه بسببِ عصيانٍ أو شركٍ ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ وأولئك الكفّار لا يزالُونَ يحتجُّونَ ويستنكفُون حينَ

يُدعونَ إلى وحدانيّةِ الله وعبادته؛ غير خائفينَ الله ذا القوّةِ والقدرةِ على إهلاكهم كما خافته الملائكةُ، ومِحَالٌ وَمُمَاحَلَة كجدال ومجادلةٍ؛ يقالُ تمحّل له إذا اجتهدَ في إيقاع الكيد به، فشديد المِحَال: شديد المكر بأعدائه ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ لله وحدهُ كانت دعوةُ الرّسلِ جميعًا، و"دعوةُ الحقّ" هي منهاجُ الله الذي أرادهُ للخلقِ على ضوءِ العبوديّةِ الخالصة والوحدانيّةِ المحضةِ، وما سواها دعوةُ الباطلِ أشارَ إليها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ وأمّا الذين يتوسّلون بالأصنام أو غيرها من المعبُوداتِ فهم لا يتلقّون منها أيَّ استجابةٍ، وتنكيرُ "شيءٍ" للتّحقيرِ والتّقليل، وفي هذا معيارٌ قرآنيٌّ في الحقيقِ بالدّعاءِ والنّداءِ وهو الدّائم السّمع السّريع الاستجابةِ وهو الله وحده. ويضربُ الله لأولئك المعرضين الذين يدعون غيرَ الله مثلاً: ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ مثلُهم كمثلِ العطشانِ الذي مدَّ راحةَ يديهِ إلى الماءِ البعيدِ علوًّا في السّماءِ أو سفالةً في البئرِ يناديه ليدخل إلى فمه فيرتوي منه غيرَ أنّ الماء جمادٌ لا يعقلُ فهو لا يستجيبُ له، وهذا تشبيهٌ تمثيليٌّ انتزع من صورٍ متعدّدةٍ فمدُّ الكفِّ رمزٌ للدُّعاءِ والارتواء رمزٌ لتحقيقِ المرغوبِ فيه والماء رمزٌ للمدعوِّ العاجزِ الذي لا يشعر بالمطلوبِ كي يلبّيه، وأورد بعضُ المفسّرينَ تفسيرا آخر لهذا المثل؛ وذلك بأنّ العطشان يأخذ من الماءِ وأصابعُه منفرجةٌ فلا يصلُ الماءُ إلى فيه مهما اجتهدَ، وتفسيرٌ آخر بأنّه الذي راحَ يرفعُ بكفّه الماء إلى فيه فماتَ من شدّةِ عطشه قبل أن يصل، حالَ من ظنَّ نجاته فهلك، ولكلِّ تفسيرٍ وجهٌ. ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وهكذا عبادةُ الكفّارِ في كُلِّ عصرٍ وعلى جميعِ الأحوالِ جهدٌ وعملٌ لكن في انحرافٍ وضياعٍ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ وكلُّ مَن في السّموات والأرضِ من المخلُوقاتِ العاقلةِ وغيرِها يسجُد لله على رغبةٍ؛ كالملائكةِ والمؤمنينَ؛ أو على اضطرارٍ كأهلِ الشّركِ والعصيانِ حالَ الضّرِ، والسّجود هنا منصرفٌ إلى معناهُ اللّغويّ وهو الخضوع ويندرجُ فيه سجود الهيئةِ والمظهرِ بالتّبع، ﴿وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ كُلّهم يخضعُ لله حتّى ظلُّهم خاضعٌ وفي كُلِّ وقتٍ؛ وفي هذا مبالغةٌ في ضمِّ كلِّ مخلوقٍ إلى زمرةِ من سجدَ له حتّى الظّل؛ بمعنى أنّ حكيم الصّنعةِ جعل الظّلال تقعُ على الأرضِ وقوع السّاجدِ لتبقى رمزًا شاهدًا على سلطته على كُلِّ مخلُوقٍ، وذكر الغدوّ والآصال وهما طرفا اليوم مجازًا عنه كلّه؛ على أنّ تجدّد ذكرِهما مقترنينِ في القرآنِ يوحي بشرفٍ خُصّا به، وهنا موضع السّجدةِ الثّانية في ترتيبِ المصحفِ التي اتّفق الفقهاءُ عليها؛ وحكمةُ السجودِ فيها أن ينضمَّ قارئها إلى من يسجُد طوعًا لله وحُبًّا.

١٧. مثل المؤمن والكافر، ومثل الحق والباطل

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ

فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(١٦) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾

ويأمر الله الرّسُول ﷺ بعد كُلِّ الذي سبقَ من دلائل معرفةِ الله بأن يقول للكفّارِ مستنكرًا تنطُّعهم مقيمًا الحجّة عليهم مقدّمًا جملةَ تلقيناتٍ بدأها بقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ أتدرُون حقًّا من الذي خلقَ السّموات العلا وخلقَ الأرض الممدودة قائمًا بشأنها وأحوالها؛ وفي الكلام تقديرُ: أجبهم على كُلِّ حالٍ، بأنّ الله هو الذي خلقهنّ، والاستفهامُ تقريريٌّ لأنّهم يعلمون الجواب و إنّما ذكّرهم بما وقر في نفوسهم تمهيدًا لقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ هل اخترتُم لأنفُسكم معبوداتٍ غير الله من الأصنامِ وغيرها؛ في حين أنّه ليس في وسعها أن تقدّم لنفسها منفعةً ولا أن تدفع عنها مضرّةً؛ فكيفَ تظنّون أنّها تنفعُكم بشيءٍ أو تدفعُ عنكم ضرًّا؟ أو المرادُ لا تقوى على نفعِ نفسها ولا على ضررِها وذلك مبالغةٌ في وصفها بالعجزِ، والاستفهامُ توبيخيٌّ تعجّبيٌّ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أترونَ بأنّ فاقدَ البصرِ بمنزلةِ المبصرِ السّليمِ؟ وتكريرُ"قل" أفاد اهتمامًا جديدًا خاصًّا بالمقُول ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أم تظنّون أنّ حال الظلّماتِ الدّامسة مثل حالِ الضّياءِ الشّائع؟ وفي الآيةِ استعارةُ لفظ "الأعمى والبصيرِ" للمعرض والمؤمن؛ واستعارةُ "الظّلمات والنّور" للباطل والحقّ، والاستفهامانِ للإنكارِ أي كلاهُما لا يستويانِ ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أم اتّخذ أولئك المشركون لأنفسهم آلهةً من دونِ الله قد صنعت و أبدعت شيئًا كما خلق الله و أبدع، وبناءً على ذلك اختلطَ الأمرُ عليهم بينَ ما هو مخلوقٌ لآلهتهم وما هو مخلوقٌ لله؛ وفي الأخيرِ عبدوها مع الله؟ والتفت من الخطابِ إلى الغيبةِ لنكتةِ احتقارِ شأنهم، وتضمّن هذا الاحتجاج تهكّمًا بهم؛ أتبعه بالفصلِ في القضيّةِ قائلاً ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أعلمهم يا مُحمّد ﷺ بأنّ كلَّ شيءٍ دقَّ أو عظم بعُد أو قرُب قد خلقه الله وحدهُ وهو تحتَ تصرّفه لا يخرُج عنه، وصفةُ الخلقِ لَمّا اجتمعت مع الوحدانيّةِ والقهرِ أوجبت معنى الدّعوةِ إلى عبادةِ من كان هذا شأنه.

ثمَّ يعود إلى ذكرِ دلائل قدرته: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الله الذي أنزل بلطفٍ قطراتِ الماءِ من السّحابِ فوقنا؛ وفي وقتٍ غيرِ طويلٍ تدفَّقت الأوديةُ بالمياهِ بحجمٍ معيّنٍ معلومٍ وبسيرٍ مقدّرٍ مكتوبٍ لم تخرج قطرة ماءٍ عن إرادته وتصرّفه، والذي سال هو الماء ونسب السّيلان إلى الأودية مجازًا ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ وجرت السّيول حاملةً على سطحها زبدًا، والزّبدُ الرّغوةُ البيضاءُ التي تطفو على المياهِ الجاريةِ، والرّابي العالي ومنهُ الرّبوةُ، وهذا مثلٌ ضربه الله في شأنِ الحقِّ والباطل

مناسبةً لما سبق في السّياقِ؛ فالحقّ هو الماء الذي يغمر بقوّته كلّ حيّزٍ والباطل هو الزّبد الزّائل مع مرور الوقت بالتّقلّباتِ، وصورةٌ أخرى لِمثلِ الزّبدِ عرضها في قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ ومن المعادنِ التي تُصهرُ بالنّارِ فيصفو أصلُها ويطفو خبثُها كالذّهبِ والفضّةِ والنّحاس والحديد لغرضِ صناعةِ أغراضِ الزّينةِ أو مختلِف الأدواتِ التي ينتفعُ بها كالأواني والآلاتِ والقطع النّقديةِ، من ذلك يطفو زبدٌ لا نفع فيهِ كما لا نفع في زبدِ الماءِ، ولعلّه نوّع هذا المثل لأهلِ الصّحراءِ كالقرشيّينَ الذين تقلُّ عندهم السّيول ولا تنعدم عندهم هذهِ الصّناعات ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ على ذلكَ النّحوِ من التّفصيلِ والوضوح يعرضُ الله مثلَ الحقّ في الأصلِ الباقي النّافع كالماءِ وشتّى المعادن؛ ومثلَ الباطلِ في الزّبدِ سريعِ الزّوال والاضمحلال، وفي الآيةِ تقديرُ مضافين أي مثل الحقّ ومثلَ الباطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ فأمّا الزّبدُ فيتلاشى سريعًا لا يبقى، و"جُفاء" صفة لحالِ الزّائل المتلاشي؛ من جفا الشّيء إذا عفاهُ ورماهُ ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ والماءُ الصّافي والمعدنُ الخالص يبقى على كُلّ حالٍ، وهكذا حالُ دعوةِ الحقّ فهي الأصلُ المستمرُّ وغيرُها من دعواتِ الباطِل مهما ظهرت وارتفعت فهي في طريقِ الضّعف والتّلاشي ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ ومثل تبيينِ الله الجليّ لمثلِ الزّبد يفصّلُ كلّ الأمثال للاعتبارِ والادّكار؛ وفي هذا تأكيدٌ لقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ والغرضُ منه تثبيتُ المعنى في النّفسِ أكثر إذ هو أمرٌ يحتاجُ إلى قوّةِ إيقانٍ و إيمانٍ.

١٨. صفات المؤمنين المستجيبين لربهم وجزاؤهم

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾

مناسبةً لما سبقَ من ذكرِ المَثَلَيْنِ في أهلِ الحقّ وأهلِ الباطلِ يَعرضُ الله جزاءَ الفريقين ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ للمؤمنينَ المتّقين الذين خضعُوا لله بالعبادةِ الخالصةِ والطّاعةِ التّامةِ الجنّة، والحسنى اسمٌ من أسمائها ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ وغيرُ الفريقِ الأوّل من الذينَ خرجوا عن الإذعانِ لله وتركوا طاعته سواءً كانوا عصاةً موحّدينَ أو مشركينَ كافرينَ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ

جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ لو كان لهم جميع ما في الأرض من الخيراتِ والثّرواتِ؛ ولهم مثل ذلك مرّةً أخرى؛ لقدّموهُ يوم القيامة يرجون بهِ النّجاةَ من العذابِ الذي وجبَ عليهم، وفي هذا تصويرٌ لفظاعةِ العذابِ حتّى إنّه يهون عليهم دفعُ كلّ ذلكِ للخلاصِ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ غيرَ أنّه ينتظرُهم حسابٌ شديدٌ على صغائرِهم وكبائرِهم ولا يُقبل منهم أيّ افتداءٍ، وحسابُهم في الواقعِ حسنٌ لكونه عدلاً وإنّما وصف بالسّوءِ لما ينتج عنه من العذابِ ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وبعد الحسابِ يُدخلُهم الله بعدله إلى مقامهم الأبديّ في نارِ جهنّمَ؛ وساءَ ذلك المقام مقامًا لمن هُيّئَ له، وشبّه ذلك بالمهادِ وهو الفراشُ على سبيلِ التّهكّمِ بهم.

وبعدَ ذكرِ موقفِ الخسرانِ يعودُ إلى مخاطبةِ العُقولِ استثمارًا لتأثّرِها برؤيةِ النّتيجةِ ومعرفتها؛ يقُول: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ هل يكون العالم بأنّ القرآن حقٌّ من الله أنزله عليك يا مُحمّد ﷺ مثل الضّالِ عنه المضيّع لهداهُ، وهنا استعارَ حال الأعمى ليبيّن صورة المعاند الكافر، والاستفهامُ إنكاريٌّ أي لا يكونانِ سواءً بحالٍ من الأحوالِ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ إنّه لا يستفيد مِن الذّكرى والدّعوةِ إلى القرآنِ إلاّ أولو العقولِ النّقيّةِ السّليمة؛ وهذا تعريضٌ بأنّ من لا يتذكّرُ بمنزلةِ مَن فقد العقلَ.

وبيّن أهل العقولِ فيما يلي: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ الذينَ يحترمون المواثيقَ التي أوجبها الله عليهم ولا ينقُضون ما عاهدُوا الله عليه أو عاهدُوا غيرهُ من خلقِه، والعهدُ والميثاقُ مترادفان، وعهدُ الله هو ميثاقُ "لا إله إلاّ الله" الذي أعطاهُ كلّ مسلمٍ حال بلوغه وبه نادى الكافر وغيرُه حال ضرّه، وهو ميثاقُ الإتيانِ بما أمر واجتنابِ ما نهى عمومًا، وبدأَ به لأنّه بصالِحه يصلُح ما سواهُ ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ وأولئكَ هم مَن يسعونَ إلى صلةِ ما أوجبَ الله صلته؛ يقُول القُطب: "من حقّ الرّحمِ والجارِ والعشرةِ وحقّ المؤمنين وموالاتهم وإثارِهم والتّودّدِ إلى النّاسِ وعيادةِ مرضاهم واتّباعِ جنائزِهم.."[11] ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ وأولئكَ أيضًا يخافُون الله تعظيمًا لمقامه لا يعصونه؛ ويتوجّسُون خيفة من الحسابِ الشّديد الذي ينتظرُ أهل الآثامِ يوم القيامةِ؛ وذكرُ المحاسبةِ بعدَ خشيةِ الله أفاد أنّهم يسعونَ إلى محاسبةِ أنفسهم قبل أن تحاسبَ، وفي استعمالِ الأفعالِ المضارعةِ في سياقِ هذهِ الخصالِ ما أفادَ التّجدّد والاستمرار؛ وفي توظيفِ أفعالِ الماضي في خصالٍ أُخرى فائدةُ تمكّنهم منها ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ وأولئكَ أيضًا أهلُ الصّبرِ على كُلّ مكرُوهٍ أو أذى في سبيلِ إرضاءِ الله، وجدّدَ اسم "الذين" كلَّ مرّةٍ تنويهًا بعظمةِ كُلّ خصلةٍ من هذهِ الخصالِ وكأنّ أصحابها أممٌ اتّحدت في أمّةٍ؛ وليس ذلك لمعنى أنّ الامتيازَ في واحدةٍ منها كافٍ للفوزِ

[11] امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، مصدر سابق، ج٧، ص٢٥٢.

بالحسنى؛ كيف ونحنُ نجدُ أنّ بعضها يُكمّلُ بعضًا ﴿وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وشأنُهم الحفاظُ على أداءِ الصّلواتِ التي تقرّبهم إلى الله، وذكرُ فعلِ الصّلاةِ بعد الصّبرِ دليلٌ على أنّ المؤمن يحتاجُ إلى صبرٍ وجهدٍ لأداء العباداتِ وإن كان قلبه مملوءا بما يدفعه إليها دفعًا، ولا بأسَ من عودِ معنى الإسرارِ والإعلانِ الآتي إلى الصّلاةِ أيضًا؛ لإفادةِ أنّهم يصلّونَ في الخلواتِ لا يتقاعسُون وأمام مرأى النّاسِ لا يتحرّجونَ ﴿وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ومن شأنِهم أيضًا أنّهم يبذلون من خالص الحلالِ الذي رزقهم الله إيّاهُ في وجوهِ الخيرِ الواجبةِ كالزّكاةِ وغيرِ الواجبةِ كعموم الصّدقةِ؛ على تستّرٍ من أنظارِ النّاسِ أي يبادرُون إلى الإنفاقِ متى تحقّق داعيهِ فإن كانوا في سرٍّ أنفقوا وإن كانوا على مرأى النّاسِ لم يمتنعوا بسببهم ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ومن شأنهم كذلك مقابلةُ إساءةِ النّاسِ لهم بالخلقِ الحسنِ، والدّرءُ الدّفعُ، وقد يكون المعنى: يدفعون عارَ الآثامِ عنهم بالتّوبةِ والإكثارِ من الحسناتِ الذي إنّما هو رمزٌ للإقلاعِ الصّحيح والعزمِ على عدمِ العودةِ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أصحابُ تلك الخصالِ النّبيلةِ الرّفيعةِ لهم العاقبةُ الحسنة في الآخرة وهي الجنّة، جنّاتُ الخلودِ الأبديّ في النّعيمِ الدّائم، والعُقبى مأخوذةٌ من العَقبِ لأنّ الجزاء إنّما يعقُب العمل، وشاعَ إطلاقُ العقبى على خيرِ الآخرةِ وإن لم يُصرَّح به، والدّارُ هي الآخرة، والعدْنُ الاستقرارُ يُقال: عدن بالمكانِ إذا أقام فيه ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يدخلها أولئك الفائزون هم ومن حسنت سيرتُه من آبائهم وأزواجِهم وذرّياتِهم، وصرّح بفعلِ الدّخولِ وأوردهُ مضارعًا لاستحضارِ ذلكَ الموقف البهيج، وبدأ بذكرِ الآباء لأنّ فضلَ التّنشئةِ الصّالحةِ يعودُ إليهم؛ والتّعبيرُ جرى مجرى التّغليبِ فتدخُل الأمّهات مع الآباءِ، والآية دلّت على أنّ النّسب لا ينفع وحدهُ إذا لم يكن المرءُ حسنَ السّيرةِ لذاته؛ كما دلّت على أنّ في الجنّةِ جمع كلّ قريبٍ إلى قريبِه وليس فيها قاطعُ صلةٍ أمر الله بها أن توصل ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ وبعد المشهدِ البهيجِ لدخولِ المؤمنينَ الجنّة تتبعُهم ملائكةُ الرّحمةِ بالدّخولِ عليهم من كُلّ بابٍ من أبوابِها، وفي هذا دليلٌ على معاهدتِهم بالإيناسِ إلى آخرِ لحظةٍ من مواقفِ الحشرِ، وكثرةُ الأبوابِ فيه دليلٌ على التّنعيمِ منذُ الدّخولِ بتسهيلِه والرّفق فيهِ؛ كما أفاد أنّ عدد الدّاخلينَ ليس بقليلٍ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ تُهنّئ الملائكة المؤمنينَ تقُول لهم: عمّكم سلامُ اللهِ في جنّته وبعدت عنكم المخاوف والأحزان جزاءَ صبركم في الدّنيا على مُرّ البلاءِ وجهدِ الطّاعةِ؛ وطابت الجنّة مقامًا لكم.

١٩. نقض الكافرين لعهد الله، واطمئنان المؤمنين بذكر الله

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ

يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)﴾

ومقابلةً لما يقربُ من عشرة أوصافٍ لأهلِ الإيمانِ يأتي إلى الحديث عن أهلِ الكفرِ والعصيانِ ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وأمّا الذينَ يتركون الوفاء بما عاهدُوا الله على الالتزام به، وقوله: "من بعدِ ميثاقه" تشنيعٌ ومبالغةٌ في ذمّ نقضهم ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ويسعون إلى قطيعةِ صِلاتٍ أراد الله أن توصل ولا تُقطع، كحقّ الرّحمِ والجارِ والعشرةِ وحقّ المؤمنين وموالاتهم و إثارِهم والتّودّدِ إلى النّاسِ وعيادةِ مرضاهم و اتّباعِ جنائزِه ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ودأبُهم الإفسادُ في الأرضِ بما يقترفُونه من المعاصي وبإضرارهم بالبيئة والحرث وغيرها من صورِ الإفساد ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ الموصوفون بتلك الصّفاتِ يستحقُون الطّرد من رحمةِ الله والإهانة في اليومِ الآخرِ بالعذابِ، وهذا عكسُ ما يُعطى من الخير لأهلِ الصّلاحِ.

ويأتي إلى تفصيلِ قانون الرّزقِ بأنّه لا علاقة له بالإيمانِ من عدمِه؛ لئلاَّ يغترَّ أهل النّعمةِ بأنّ الله قد أحبّهم فبسطَ لهم رزقه؛ وليجد المؤمنون جوابًا عن سببِ بسطِ الخيرِ للمكابرينَ مع طغيانهم؛ قال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الله -جلّ شأنه- يفتحُ من خزائنِ رزقه على من يشاءُ من عبادِه مؤمنِهم وكافرِهم؛ كما أنّه بيدِه التّضييقُ في الرّزقِ على من شاءَ منهم وفقَ حكمةٍ وعدلٍ، والقَدْرُ الكمّيّةُ المعلومة كنّى به عن الضّيق والقلّةِ؛ ويقابله البسط وهو مستعارٌ للاتّساعِ والكثرة ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وفرحَ الكفّارُ وأهل المعاصي بزينةِ الحياةِ الدّنيا فرح بطر، وهذا إخبارٌ أُلبس حجابَ التّوبيخِ والملامة، والفرحُ بالدّنيا لذاتها مذمومٌ على عمومه، وأمّا الفرحُ بفضلِ الله وبرحمته أو بنصرِ الله ونحوِ ذلك مما يتحقق للإنسان في الدنيا من غير أن يطغيه فمحمودٌ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ ولا تعدُّ هذه الدّنيا في الحقيقةِ الأخرويّةِ إلاّ متعةً ولذّةً عابرةً، وتنكيرُ "متاعٌ" للتّحقيرِ والتّقليل، وفي هذهِ اللّفتةِ تحذيرٌ لنا من الرّكونِ إلى الدّنيا ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ويودُّ كفّار مكّة أن تنزل عليكَ معجزةٌ من ربّكَ كعصا موسى وفداء إسماعيل -عليهما السّلام- تكون شاهدًا على صدقِك. أجبهم يا مُحمّد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ استيقنوا أنّ أمر الآياتِ ليس بيدي و إنّما كلّ الأمرِ لله وحدهُ؛ فهو الذي حكم بضلالةِ من أعرض عن نهجه فليس تنفعُه آيةٌ مهما كانت؛ ووفّق إلى دربِ الهدايةِ من أذعن له وتاب ولو بدونِ خوارق خاصّة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ والذينَ أنابُوا هم الذينَ آمنوا حقَّ الإيمانِ فصارت قلوبهم تسكُن وترتاحُ لذكرِ الله فتنتفعُ بالمواعِظ بخلافِ القاسيةِ التي أضلّها الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ألا فليعلم كلُّ أحدٍ بأنَّ راحةَ القلوب وسكونها منوطٌ بذكرِ الله بخشوعٍ واستحضارٍ لا بغيرِه من الأمور، و افتتحت الجملة

بحرفِ تنبيهٍ جلبًا للأفهامِ إلى مضمونها النّفيس، وجاء الفعلُ مضارعًا في الموضعين لإفادةِ دوامِ هذهِ السّنّةِ واستمرارها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ وإنّ أهل الإيمانِ والعملِ الصّالحِ هم أهلُ الفوزِ بأفضلِ مقامٍ في الآخرةِ، و"طوبى" مصدرُ طابَ وهي تبشيرٌ أو دعاءٌ بالخيرِ، و"المآب" المرجع.

٢٠. تبليغ الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن العظيم، وإعراض المشركين عنه

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)﴾

ولَمّا سلفَ طلبُ الكفّارِ آيةً تنزلُ على الرّسُول ﷺ جاءَ الجوابُ صريحًا لهم بأنّ مهمّته هي تبليغُ الوحي ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ كما بعثنا قبلك يا مُحمّد ﷺ رُسلاً إلى أقوامٍ عديدةٍ بعثناكَ إلى قومِك الذين جاؤوا آخرَ الأقوامِ وكنتَ نبيّهم الخاتم، وتذكيرُ الرّسول بهذا تسلية لقلبِه متجدّدةٌ في القرآنِ تجدّدَ الشّدّة التي كان يجدُها من قومه من حيثُ ردّهم لرسالته ورفضهم أن يكون الرّسول بشرًا ونحو ذلك ﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أرسلناك إلى قومك لتبلّغ لهم ما علّمناك من الوحيِ؛ أي ليست مهمّتُك كشف الخوارقِ لهم ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وهم في حال كفرٍ بالله الذي رحمهم بكثرةِ النّعم وطولِ العمر، وضميرُ "هم" عائدٌ إلى جزءٍ من الأمّةِ وهم الذينَ كفروا، وجاء "يكفرُون" بالمضارعِ لإفادةِ دوامهم على الكفرِ، وخصّ من أسمائه "الرّحمن" تنبيهًا إلى اعتراضهم على هذا الاسمِ بالأخصّ؛ وتضمّن تعجيبًا من حالِهم حيثُ كفرُوا بمن شأنه أن يرحمهم فخسرُوا بذلك ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لقّنهم وأسمعهم بأنّ الذي تكفرُون به هو ربّي الذي خلقني وسوّاني وأكرمني فلا أرضى لكم أن تكفرُوا نعمته بل أوصيكم بعبادته فهو الواحدُ المستحقُّ للعبادةِ لا معبُود بحقٍّ سواهُ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ عليهِ وحدهُ اعتمادي في جميعِ أموري لأنّه القويّ المعين؛ وإليه لا إلى غيرِه أرجعُ بالتّوبة إذا أخطأت في حقّه أو قصّرتُ، وهذا تعليمٌ لهم عن طريقِ القدوةِ ليتوكّلُوا عليه ويتوبوا إليه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ ولو أنّه ثمّةَ من كتابٍ سماويٍّ يُقرأُ حُرّكت به الجبالُ عن موضعها؛ أو تشقّقت بسببه الأرضُ قِطعًا؛ أو خوطبَ أهلُ القبورِ بكلماته

فأجابوا؛ وجوابُ "لو" محذوفٌ –وحذفُه كثيرٌ في القرآن- تقديرُه: لما آمنوا به كما لم يؤمنوا بهذا القرآن؛ أو لكان ذلك الكتاب المقروء هو القرآن الكريم لكونه معجزةً عظيمةً ومع ذلك لم يُؤمنوا به؛ وحاصلُ التّقديرينِ واحدٌ ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ ولم يؤمن أولئكَ؛ ولم يحدث الله بالقرآنِ تغيّراتٍ كونيّة دفعًا لهم إلى الإيمانِ؛ لأنّ كلَّ ذلك يجري وفق حكمته وإرادته، ولا يزالُ الكلامُ لِلرّسُول ﷺ يقُول له: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ألم تجد في أتباعك المؤمنينَ طمعًا في أن يهديَ الله جميعَ النّاسِ إلى الإيمانِ، والجملة تعليلٌ لما قبلها أي لم يحقّق الله لهم ذلك لأنّ الأمر لله جميعًا حين جعل إيمان النّاسِ باختيارِهم بناءً على توفيقهم وخذلانهم، واليأسُ هنا مستعملٌ في معنى العلم بعدمِ حصولِ الشّيء وهو هدايةُ النّاسِ جميعًا. وتتميمًا لتسليته ﷺ يقول الله له: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ و أنت ترى أنّه مرّةً بعدَ مرّةٍ تتجدّدُ البلايا على قومكَ بسببِ كُفرِهم ومعاصيهم، وجاءَ لفظُ "قارعةٌ" بالتّنكيرِ ليبعث على التخويفِ أكثر بما هو مجهول؛ وسمّيت بذلك لكونها تقرعُ الأسماع بهولها ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ أو تأتي القارعة على مقربةٍ من موطِنهم؛ أشار بهذا إلى تعذيبِهم بالخوفِ بسماعها وهو أشدُّ لأنّه أطول؛ وإلى أنّه ينذرُهم رحمةً بهم قبل أن يأخذهم بغتةً، أو الذي يحُلُّ بهم هو الرّسُول ﷺ إشارةً إلى فتحِ مكّةَ و انتهاءِ عهدِهم بالذّلِ بدل كرامة قبولهم الإسلامَ عن طواعية ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ إلى أن يجيء وعدُ الله بالنّصرِ فلا إمهال للمكابرينَ في العذابِ ولا تأخيرَ على المؤمنينَ في النّصر، و إتيانُ الموعودِ مجازٌ عن تحقّقه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ والله صادقٌ في وعدِه ووعيدِه لا يُبدّل شيئًا من ذلك ولا يتراجعُ عنه ولا يُؤخّرُه عن ساعتِه ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وكما سخِربكَ قومك يا مُحمّد ﷺ فقد سخرت أقوامٌ كثيرةٌ برُسلهم، وزيادةُ "من قبلكَ" مع أنّه بيّنٌ من المقامِ لتصويرِ أنّ ذلك سنّة تسري عبر الزّمن ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فبسطتُ النّعم والخير لهم استدراجًا حتّى حلّت ساعةُ العذابِ عليهم وهم على حالِ الكفرِ فأُخذوا بغتةً، والإملاءُ بمعنى الإمهال وطولِ المدّةِ من ملأَ ملاوةً ومنهُ ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم ٤٦]، وَذَكَر المستهزئينَ بعنوانِ الكفرِ ذمًّا لهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فتأمّل أيّها البصير كيف كانت كيفيّة أخذهم وعقابهم؛ والاستفهامُ تعجيبٌ من فظاعةِ صورة العقابِ؛ وتعظيم لمقامِ الإله العادل والحكيمِ فيه.

٢١. ضلال المشركين، وبيان عقبى المؤمنين وعقبى الكافرين

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ(٣٥)﴾

ولَمّا سبقَ السّياقُ في التّعجيبِ من حالِ الكفّارِوشركهم فرّع هنا صورةً عن ذلك ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ هل يكونُ الإله الحفيظُ على عملِ كلّ إنسانٍ خيرًا وشرًّا؛ والخبرُ حذفَ لأنه معلوم من المقامِ وتقديرُه: كمن ليس كذلك من المعبوداتِ؟ والاستفهامُ إنكارٌللياقة أن يصحَّ ذلك، وفائدةُ ذكرِصفةِ القائم أي الرّقيب لدلالةِ أنّ من شأنِ الإله أن يملك سلطةَ الرّقابة على عبيدِه؛ وللإشارةِ إلى أنّه يحفظُ الأعمال كي يُجازي عليها؛ ومعبوداتُهم ليس لها حظٌّ من ذلك ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ إنكارٌثمَّ طلبُ برهانٍ؛ و اتّخذ الكفّارلله شركاءَ في عبادته؛ اسألهم أيّها الرّسُول ﷺ أن يصفُوا ما اتّخذوهُ شريكًا فينكشف كذبُهم حيثُ لا يستطيعون القول بأنّه خالق أورازق ولا نحو ذلك، وهذا الإخبارُصيغَ لتوبيخِهم والتّعجيبِ من حالِهم، وأظهر اسم الجلالة تنبيهًا على إشراكهم بمن وجبت وحدانيّته ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أم تريدُون أيّها المشركونَ إخبارالله بما لا يعلمه في الأرضِ؟ وما لا يعلمه كنايةٌ عمّا لم يوجد أصلاً إذ هو بكلّ شيءٍ عليمٌ ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أم تقولونَ بألسنتكم أقوالاً تظهرُونها وتجهلُون فحواها ومؤدّاها من الشّركِ الفظيع ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ وحقيقةُ ما في الأمرِ أنّه زُيّن لأولئك الكفّارِعملُهم الباطل فانحرفُوا به عن جادّةِ الحقّ، والمزيّنُ الله بالنّظرِإلى تقديرالتّزيينِ والشّيطانُ سببُه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ والذي أراد الله ضلالته فليس ثمّة من يهديه إلى الحقّ مهما كانت حيلته أو وسيلته ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لأولئك الكفّارِعذابٌ كُتب عليهم في هذهِ الحياةِ بسببِ شركهم، ونكّر"عذابٌ" للتّهويل منه، وهو عذابُ الضّرِ بأيديهم و أيدي المؤمنين ثمّ عذاب الهلاكِ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ وإنّ عذابَ الآخرةِ أصعبُ على نفوسهم من أيّ عذابٍ دنيويٍّ مهما بلغت حدّته ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ وليس لهم أحدٌ يقيهم شرَّالعذابينِ إذا كتبه الله عليهم.

ومقابلةً لفريقِ الأشقياءِ ينوّهُ الله بالسّعداء ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ صفةُ الجنّةِ التي وعد الله بها عبادهُ الذين عاشوا يخافُونه لا يعصونه، والْمَثَلُ أو الْمِثْلُ سواءٌ يعني الصّفةَ العجيبةَ الباعثةَ على التّشبيه، فهي جنّةٌ اشتملت على ما يلي: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ تسيرُالأنهارُالمختلفة المشاربِ في جنباتها؛ أو المراد تحتَ أبنيةِ قصورِها العظيمةِ، وتكريرُتحتيّةِ الأنهارِفي القرآنِ عن الجنّةِ كنايةٌ عن قربِ موارِدِ الشّربِ من المساكِن ولا يلزمُ منهُ فوقٌ وتحتٌ ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ طعامُها متوفّرٌلا ينقطع صالحٌ لا يفسد، وظلُّ أشجارِها و افرٌممتدٌّ دائمٌ هو كذلك؛ ومعنى دوامه أنّ الشّمس لا تأتي عليهِ لالتفافِ أشجارِالجنّةِ؛ أو أنّ الجنّة ظلٌّ كلّها ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ تلك الجنان مصيرُالذينَ عاشوا

يخافون الله لا يعصونه، واستعمل اسم الإشارةِ تنزيلاً للجنّةِ منزلةَ الشّيءِ المشاهد لوضوحِ صفاتها ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ومصيرُ الكفّارِ عذاب النّارِ الأليم، وفي هذا مقابلةٌ لمصيرِ الفريقينِ والأشياءُ بضدّها تتبيّنُ والعقلُ لحسنها يختارُ.

٢٢. فرح المؤمنين من أهل الكتاب بالقرآن، وبيان بشرية الرسل

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾

وبعد الحديثِ عن الكفّارِ والمشركينَ من أوائل السّورةِ يتعرّضُ هنا لأهلِ الكتابِ ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وأهلُ الإنجيلِ والتّوراةِ المؤمنون بكَ أيّها الرّسُول ﷺ يستبشرُون بالقرآنِ المنزلِ إليكَ، وفي هذا تعريضٌ بغيرِهم من النّصارى واليهودِ الذينَ اتّخذوا من منبرِهم قاعدةً لقذفِ الإسلامِ ومقدّساته، وقد يُفسّرُ الذين أوتوا الكتاب بعامّةِ المؤمنينَ؛ غير أنّ ذكر الفرحِ دون الإيمان يناسبُ أهل الكتابِ إذ هي حالةٌ أوفقُ بالصّدورِ منهم لمّا يجدونَ في القرآن ما يُوافقُ كُتُبَهم ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ وفي أحزابِ اليهودِ والنّصارى أو في غيرِهم مِن الطّوائف مَن يردُّ بعضًا من القرآن؛ وهذا البعضُ ما خالفَ أهواءهم ولو آمنوا بعمومه أنّه من الله، بمعنى ليس معيارُ اتّباعِ النّاسِ لك أيّها الرّسُول ﷺ قربهم أو بُعدهم منك بل هو معيارُ الفرحِ بالقرآنِ كلّه والإيمانِ به جملةً وتفصيلاً ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ أعلم قومَك يا مُحمّد ﷺ وكلّ مَن يصلُه بلاغُك بأنّك: مأمورٌ بعبادةِ الله الواحدِ وحدهُ مهما اتّخذ النّاسُ له من الشّركاء ولم تُؤمر بطاعةِ غيرِه ولا بالاستماعِ لما يُمليه، ولعلّه أيضًا أفادَ في إعلانِ اعتصامه بالله أنه ليس كونكم مُتَحزّبين ضدَّ الإسلامِ يضعفُ مِن عزيمتي حول الإسلامِ شيئًا ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ لا أدعو أحدًا إلاّ إلى الله وسبيله المستقيم؛ بمعنى لو كنت أدعو إلى غيرِه من العاجزينَ والضّعفاءِ فحُقَّ لكم أن تعترضُوا عليَّ؛ أمّا وإنّي أدعُو إليهِ وحدهُ فلا يسعُكم إلاّ الإيمان بمن هو إلهكم وخالقُكم ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ وإلى الله وحدهُ مرجعي في كُلّ أموري ومرجعي بعدَ الموتِ فلا تنفعونني إن عصيتُه وأطعتكم ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ ومثل إنزالِ الله للكتبِ السّابقةِ كلٌّ بلسانِ القومِ الذينَ أُنزل فيهم؛ أنزل الله القرآنَ الكريم بلسانٍ عربيٍّ وجعلهُ دستورًا يحكُم به النّاسُ بينهم في القضايا التي اختلفُوا فيها، وذكرُ صفةِ الحُكم هنا مناسبٌ للإشارةِ السّالفةِ للأحزابِ أو هي

بمعنى الحكمةِ؛ واستعمل "حُكمًا" بالمصدرِ مبالغةً في أنّه ذاتُ الحُكم، وجعلُ الحُكمِ عربيًّا فيه تعريضٌ بمن نزل القرآنُ على لسانِهم؛ فَبَدلَ أن يسرعُوا لقبولِه لإدراكهم له شرعُوا يردُّونه، ولذلك قال مُحذّرًا الرّسُول ﷺ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ وإذا ما سلكت طريقَ الكفّارِ الذي نسجته أهواؤُهم بعد كلِّ هذا التّبيينِ لمنهجِ الله الحقِّ، واللامُ في "لئن" موطّئةٌ لقسم، ومن اتّباعِ أهوائهم أن يو افق ﷺ على طلبهم للمعجزاتِ، وفي الآيةِ إثارة وتهْييج للنّفسِ، والرّسُول ﷺ منزّهٌ عن ذلك، أو هو خطابٌ له والمراد به عقلاءُ أمّته ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ليس لكَ أحدٌ غير الله يتولاّكَ بالحفظِ فتنجو؛ وليس لك من سبيلٍ لتقي نفسك من عذابِ الله الذي توعّدَ به كلّ جاحدٍ، والوليّ النّصير؛ والواقي المدافع؛ وهما واحدٌ من حيثُ الفحوى إلاّ أنّ الوقاية قد تكون من غيرِ العقلاء.

ثمَّ يوردُ الله مجموعةَ أجوبةٍ على الكفّارِ والمشركينَ بدأَها بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ ولقد بعثنا قبلكَ يا محمّد ﷺ رُسلاً كثيرينَ؛ وهذا خبرٌ معلُومٌ أوردهُ تمهيدًا لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أردنا لهم أن يتمتّعُوا بالحياةِ الزّوجيّةِ ويكونَ لهم نسلٌ بعدَ ذلك؛ ولعلَّ هذا من حيث العموم، والله أعلمُ بحالِ كُلٍّ منهم، فقد يكون فيهم من لم يتزوج، وفيه ردٌّ على من أنكر على الرّسُول ﷺ تعدّد زوجاته واشتغاله بالإنجابِ دون أن يتفرّغ لمصالِح الأمّة كلّيّةً، وفي جعلِ عموم الرّسلِ على تلك الحالِ حكمةٌ بالغةٌ إذ ستكتملُ صفاتُ البشريّةِ عند كُلٍّ منهم ومن ثمّةَ لا يبقى للنّاسِ من حاجزٍ لتصوّرِ إمكانيّةِ تقليدِهم و اتّباعهم فيما جاؤوا به ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وليس لرسُولٍ أيًّا كان أن يصنع معجزةً طلبها قومه إلاّ إذا أراد الله أن يجريَها على يديه، وفي هذا ردٌّ أيضًا على من طلبَ المعجزات، أو المرادُ بالآيةِ الوحي فيكونُ ردًّا على مَن طلبُوا نزول القرآن جملةً واحدةً بأنّ نزوله مفرّقًا لا يُخرجه عن كونه مِن الله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكُلِّ أمرٍ وقتُه التي يقعُ فيه قد علمه الله وقدّره بحكمةٍ، والكتابُ مجازٌ عن الشّيءِ المكتُوب فإنّ مِن شأنه أن يثبت ويحدُث، وفي هذا ردٌّ على استعجالِهم ظهور الإسلامِ وغلبة الرّسُول ﷺ لهم وتهديدهم بالعذابِ؛ بأنّ التّأخير ليس أمارةً لعدمِ الحدوثِ ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ لله أن يُثبت مِن الأحكامِ والآياتِ ما شاءَ وله أن ينسخَ مِن ذلكَ ما شاءَ، وهنا ردٌّ على الذينَ استنكرُوا على الرّسُول ﷺ التّدرّج في الأحكامِ على طريقِ النّسخِ،ويمحو السيئات بالتوبة والصغائر باجتناب الكبائِر، ويمحو القمر ويثبت الشمس، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ إلى غير ذلك من صور المحو والإثبات، أو الآية بمعنى يزيلَ الله أيَّ شيءٍ كالذّنبِ والشّقاءِ والأجرِ والسّعادةِ وله أن يُثبت ما شاءَهُ من ذلك؛ وليس هذا على ما تمليه البدواتُ ولكن وفق علمٍ أزليٍّ قد سبقَ، ويُقرّرُ هذا المعنى قولُه: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ولله وحدهُ علمُ كلِّ شيءٍ قبل أن يقع كيفَ يقعُ ومتى، و"أُمُّ الكتاب" أي أصلُه وهو اللّوحُ المحفوظ الذي هو مجازٌ عن علمِ الله المطلقِ؛ فهو الأصلُ الذي قد حُفظت فيه الثّوابت والمتغيّرات وهي ليست بجديدةٍ إلاّ علينا.

٢٣. مهمة الرسل الإبلاغ، وسنة الله في إهلاك الكافرين

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ(٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾

ثمّ يتوجّهُ بالخطابِ إلى الرّسُول ﷺ بعدَ أن أيّدهُ بشتّى الأجوبةِ التي يلقّنُها لقومه ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وعلى أيّةِ حالٍ؛ أريناكَ أيّها الرّسُول ﷺ بعضَ العذاب الذي توعّدنا بهِ الكفّار أو قبضناكَ إلينا بالموتِ قبل أن ترى وعيدَ الله الدّنيويَّ فيهم، أو يُقال جوابُ "إنْ" الشرطيةَ محذوفٌ تقديرُه: فلا شيء عليكَ و إنّا منتقمونَ منهم لا محالةَ، وذكرَ البعض لإفادةِ أنّه مهما أراهُ من عذابِهم فإنّ ما يجدونه أعظم، وفي الآيةِ تهديدٌ للكفّارِ و إيماءٌ بأنّ نصرَ دينِ الله باقٍ ولو توفّي الرّسُول ﷺ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ فليس عليكَ سوى تبليغ ما أمرت بتبليغِه لهم دون تحقيق ما طلبُوه من المعجزاتِ ونحوِ ذلك؛ وعلى الله وحدهُ حسابُ كُلّ مكلّفٍ، والمراد لا تنتظر هلاكهم بحال من الأحوال واسْعَ لدعوتهم ما دام فيك نفسٌ يصعدُ، والبلاغ اسم مصدرٍ بمعنى التّبليغ. ولمّا ذكرَ هلاك الكفّارِ نبّه إلى أماراته لئلاّ يظنّوهُ وعدًا مكذوبًا لا يتحقّق ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أولم يتبيّن جيّدًا للكفّارِ بأنّ الله يضيّقُ من كيانِهم باتّساعِ رُقعةِ الإسلامِ، و إتيانُ الله الأرض مجازٌ عن إتيانِ أمرِه إليها، ونقصُ الأرضِ مجازٌ عن نقصِ سُلطةِ أهلها عليها، والمرادُ بأطرافها هنا أجزاؤُها، وفي هذا أيضًا ما تضمّنَ بشارةً لصفِّ المسلمينَ بأنّ الله معهم ينصُرُهم ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ وحُكم الله نافذٌ سارٍ لا يقوى أحدٌ على الإتيانِ بعدهُ بما يُبطله أو يُنقصُه أو يُضعفُه؛ ومنهُ أنّه حكم برفعِ الإسلامِ وخذلانِ الكفرِ فكانَ ذلك، وأظهر اسم الجلالةِ في موضع إضمارٍ لتربيةِ الهيبةِ منهُ؛ واستحضارِ مقامِ وحدانيّته القاضي بانفرادِ الحُكم له؛ ولتستقلَّ الجملة بالحجّةِ وتكون مثلاً يُحفظُ ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ والله لا يعجزُه حسابُ ملايير الخلقِ في آنٍ واحدٍ ومجازاتُهم، أو الآية بمعنى لا يُؤخّرُ عقوبة العاصي ولا ثوابَ المؤمن؛ لينسجم السّياقُ مع أوّله في أنّ عذابَ الكافرينَ واقعٌ، وليس تأخّرُهُ بدليلٍ على عدم مجيئه؛ ونفسُ الأمرِ مع نصرِ المؤمنينَ ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وكما تعرّض الكفّارُ لدعوتك أيّها الرّسُول ﷺ فقد تعرّض قبلهم أمثالُهم للرُّسلِ قبلك، والمكرُ إضرارٌ خفيت طريقتُه وهو هنا إتيانُهم من كُلّ سبيلٍ لا يتوقعونه ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ وزمامُ كلّ مكرٍ بيدِه تعالى وحدهُ؛ فلا يمكرُون إلاّ بما علمه الله ولا يمكرُون إلاّ وفقَ ما أراد أن يكون، ولا يُنسبُ المكرُ حقيقة إلى الله و إنّما عبّر عن وعيدِهِ لهم بذلك مشاكلةً لفعالِهم ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ والله عالمٌ خبيرٌ بكلّ نفسٍ وما اكتسبته من

الأعمالِ خيرًا كانت أو شـرًّا فهو يُجازي كلّ نفسٍ بما عملت؛ وفي هذا نفيُ صـفةِ المكرِ له إذ عَلِمَ الفعل فَعَدَلَ في الجزاء ﴿وَسَـيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وسـيرى الكفّارُ مَن هو الأجدرُ بالفوزِ بسـعادةِ الدّارِ الآخرةِ وحينها يشـتدُّ ندمهم على عدمِ الإيمانِ بك أيّها الرّسُـول ﷺ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ ولا يزالُ الكفّارُ يزعمون بأنّكَ لستَ رسولاً مِن الله وإنّما تأتي بالوحي من عندك أو تنقله عن غيرك، وعبّر بالمضارع عن قولهم لإفادةِ تجدّده واستحضارِ مقولتهم الغريبة تلك، ولوضوحِ ادّعائهم وجرأته ناسبَ أن يأتي بجوابٍ يشـملُه فقال: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَـهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ قل لهم أيّها الرّسُـول ﷺ يكفيني أنّ الله شـهد بأنّي رسُـوله فأيّدني بالمعجزاتِ وعلّمني الآياتِ وشـهدَ بأنّكم كفّار لا تُؤمنون بي، وجعلُ الله شـهيدًا بمنزلةِ القسـمِ به؛ إذ فيه معنى استحضارِ مقامه العظيمِ لحملِ الخصـمِ على النّزولِ عن غلوّه ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ويكفيني شـهادةً أهلُ العلمِ ممن آمن بالكتُب السّـماويّةِ وصـدّقُوا بي؛ فلا أنتظرُ شهادتكم، أو الكتابُ اللّوح المحفوظ والذي عندهُ علمه هو الله.

تمّ بحمدِ الله تفسيرُ سورةِ الرّعدِ وتليها سورةُ إبراهيم عليه السلام

تفسيرُ سورة إبراهيم عليه السلام

هي سورةٌ مكّيةٌ في عمومها بها اثنتانِ وخمسون آيةً على المشهورِ؛ نزلت بعد سورةِ الشّورى وقبل سورةِ الأنبياء، غلب عليها الحديث عن أُصولُ التّوحيدِ والإيمان، واستُهلّت بتعظيمِ القرآنِ والإشَادَةِ بمكانةِ محمّدٍ ﷺ وبدينه؛ ونوّهت إلى دلائل قدرةِ الله لمعرفته حقّ المعرفةِ، وذلك في نسيجٍ محكمٍ من جملٍ جامعةٍ وعباراتٍ رفيعةِ المبنى بليغةِ المعنى فقد تعمّقتِ السّورةُ في تصويرِ الجزاء الأخرويّ وتفصيلِ مواقِفه.

وجمعت السّورةُ قواعدَ دعوةِ الرُّسلِ لأقوامهم؛ مبيّنةً وحدةَ هدفها في إنقاذِ البشريّةِ من ظلماءِ الشّركِ إلى نورِ التّوحيدِ، وضربتِ الأمثال للمكذّبينَ بما حدث لمن قبلهُم كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ و أقوامٍ لا يعلمُها إلاّ الله، فهذا موسى عليه السلام يذكّرُ قومه بالله ويوصيهم بشكرِ نعمائه؛ وذاك إبراهيمُ عليه السلام يتضرّعُ إلى الله كي يجنّب أهله عبادةَ الأصنام...، ولورودِ قصّته في السّورةِ سُمّيت به تخليدًا لجهادِه من أجلِ رفعِ رايةِ التّوحيدِ.

٢٤. القرآن كتاب هداية للناس، و إنذار للكافرين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرّحِيمِ

﴿الركِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)﴾

﴿الر﴾ حروفٌ مبهمةٌ؛ ذهبت أقربُ التّأويلاتِ إلى أنّها إعجازُ الله خلقَهُ في الإتيانِ بمثلِ هذا القرآن وإن كانت مادّتُه بينَ أيديهم، ولهذا غالبًا ما يُذكرُ الوحيُ بعدها، وذهب تأويلٌ آخر إلى أنّها اسمٌ آخر لكلّ سورةٍ افتتحت به ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ آياتُ الوحيِ التي تتلقّاها أيّها الرّسُول ﷺ لم تُبدعها من عندكَ و إنّما أوحاها الله إليك، وسمّاها كتابًا مجازًا باعتبارِ ما ستؤولُ إليهِ لأنّ القرآن لم يجمع بعدُ، وقوله "إليك" تنويهٌ بشأنِ المنزَلِ إليهِ ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أنزلنا إليكَ الآياتِ لتُنقذَ بها البشريّة من ظلماتِ الجهلِ والوثنيّةِ إلى نورِ التّوحيدِ والعبوديّة لله، وهنا استعارةُ الظّلماتِ لطرائق الضّلال والنّورِ لطريق الهدى، ونسبَ الإخراج إلى الرّسُول بعد أن عزا الإنزال إلى نفسه لنكتةِ تعظيمِ وساطتِه ﷺ، وذكرَ النّاس دون الجنّ لأنّ دعوته ﷺ للجنّ غير مباشرة و إنّما كانت عبر منذرينَ منهم يأتونه؛ وإن كان الجن مشمولين برسالته، وجمع الظّلماتِ ليدلّ على شُعبِ الباطل الكثيرةِ التي هي

مظنّة الضّـياعِ أمام منهجِ الحقِّ الواحد ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ إنقاذًا يكونُ بإذنِ الله وتوفيقه، وعلّق ذلكَ بإذنه تنبيهًا إلى أنّ الاهتداء لا يكونُ إلاَّ بيده تعالى مهما اجتهدَ الدّاعي وبلّغ، والظّاهر أن يقول: بإذننا؛ لكن أضافهم إلى اسمِ الرّبِّ إشعارًا بتلطّفِه بهم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إلى طريق الله؛ العزيز في ملكه لا يغلبُه أحدٌ؛ المحمود على كُلِّ حالٍ والشّاكرِ لجميلِ صنائع خلقه، ومناسبةُ اختيارِ الاسمينِ دعوةُ النّاسِ إلى مَن لا محيص إلى الاستجابةِ له مِن حيثُ سلطتُه الشّاملة التي لا يُتعالى عليها؛ ومِن حيثُ جوارُه المحمود الذي لا يُستغنى عنه ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وهو الله الذي ملكَ جميع الموجوداتِ في السّمواتِ العاليات وجميع المخلوقاتِ في الأرضِ الممدودةِ الشّاسعةِ، نبّه بهذا إلى أنّه الأحقّ بأن يُؤمن به النّاس ويعبُدوهُ ثمّ قال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ووعيدٌ شديدٌ بالعذابِ الفظيع في الآخرةِ ينتظرُ الكفّار الجاحدينَ قدرَ الله المعرضينَ عن دعوةِ رُسله، والويلُ دعوةٌ وإخبارٌ بالهلاكِ، ثمّ يصفُهم بأنّهم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ الذينَ يفضّلون ملذّاتِ الدّنيا الفانية على نعيمِ الآخرةِ الباقي؛ ومعنى ذلك أنّ أعمالهم في الدّنيا انصرفت نحوَ أهدافٍ دنيويّةٍ محضةٍ وليس لهم تفكيرٌ موجّهٌ نحو الآخرةِ وتحصيلِ ثوابِها، والسّين والتّاءُ في "يستحبّون" للتّأكيد؛ والتّعبير بالاستحبابِ أقوى دلالةً على الحب من يستحسنون أو يختارُون ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وبحبّهم البالغ للدّنيا هم يبعدون أنفُسهم ويُبعدُون النّاس عن منهجِ الله الأقوم الذي فيهِ نجاتُهم خدمةً لأغراضهم وحُبًّا لأن يكونَ غيرُهم معهم على اعوجاجِهم ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ الموصوفون بتلك الخصالِ الدّنيّةِ في ابتعادٍ واضحٍ عن نهجِ الله، حالُهم حال التّائه في الصّحراءِ الشّاسعةِ لا يزيدُه السّيرُ في منهجِه إلاَّ ضياعًا، والأرجحُ أنّ كلَّ الضّلالِ بعيدٌ؛ أو يُقال ضلالُ الموحّد قريبٌ لسهولةِ رجوعه.

واحترازًا مِن توهّمِ أنّ أولئك الكفّار لم تصلهم رسالةُ الله أو أنّها وصلت ولم يتيسّر لهم حملُها؛ قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ولم يكن إرسالُنا لأيّ رسُولٍ مِن الرُّسلِ إلاّ وفق لُغةِ قومه الذينَ أرسلَ فيهم لأجلِ أن يسهل عليهِ أمر التّبليغ والبيانِ ولأجلِ أن يُقبل قومه عليه فيقوى بهم وتتّسع رُقعة دعوته، فكونُ الرّسالةِ بلغةِ القومِ بالنّظرِ إلى مهدِ انطلاقها، واللّسانُ اسمٌ للّغة أو مجازٌ عنها، وفي الآية تلميحٌ إلى قدمِ تنوّعِ آيةِ اللّغاتِ وتعدّدها ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وليس على الرّسُول بعد البلاغِ شيءٌ و إنّما بقاءُ النّاسِ على الضّلالِ أو اهتداؤُهم بما جاءَهم به رسُولهم بيدِ الله وحدهُ وفقَ سننٍ حكيمةٍ عادلةٍ، وأظهر لفظَ الجلالةِ تلويحًا إلى تحكُّمِه المطلق بالهدايةِ والإضلالِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو صاحبُ العزّةِ المطلقةِ في كونه لا يُنازعه أحدٌ سلطانه؛ وهو الحكيمُ في كلِّ أمرٍ أرادهُ وقضاهُ؛ ومنه خذلانُ الكافرِ والعاصي عن نورِ الرّسالةِ لإعراضه وتوفيقُ المؤمنِ الصّادقِ لحسنِ إقباله إليه.

٢٥. إرسال موسى عليه السلام إلى قومه بالوحي وتذكيرهم بنعم الله تعالى

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾

وبعدَ الإشارةِ إلى مهمّةِ الرّسلِ الجامعةِ تعرّض إلى قصّةِ موسى عليه السلام وبيانِ إنكارِ قومه رسالتَه تنبيهًا إلى تشابُهِ حالِهم بحالِ المنكرينَ من قوم مُحمّدٍ ﷺ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ ولقد بعثنا رسُولنا موسى عليه السلام بآياتِ الوحيِ والمعجزاتِ الباهراتِ، وفي التّذكيرِ بقصصِ الأنبياءِ عامّةً تسليةٌ لقلبِ كلّ داعيةٍ بدايةً من الرّسُولِ ﷺ للتّخفيف مِن أعباءِ دعوته بعرضِ منهجِ مَن سبقه في نفسِ المضمارِ ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ آمرينَ إيّاهُ أن يجتهدَ من خلالِ الآياتِ التي فيها هدايةُ قومه؛ في إنقاذِهم مِن ظُلماتِ العصيانِ والشّركِ إلى نورِ الوحيِ والتّوحيدِ، وفي قوله "قومك" فارقٌ ظاهرٌ مِن حيثُ عمومُ رسالةِ كلٍّ مِن موسى عليه السلام ومُحمّدٍ ﷺ الذي قيل له: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ كما سبقَ أوّل السّورةِ ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ وذكّر قومك بنعمِ الله البالغاتِ عليهم في الأزمنةِ الماضيةِ، وينصرفُ معنى اليومِ المضافِ إلى حدثٍ أو جماعةٍ في لُغةِ العربِ كيوم بدرٍ ويومِ تميمٍ إلى الحوادِث العظيمةِ ومنه يوم إنجاءِ بني إسرائيل وإغراقِ فرعون؛ إلاّ أنّ السّياق هنا يطلبُه إلى أيّامِ الخيرِ خاصّةً، وإضافة الأيّامِ إلى الله لأنّه مقدّرُ حدثِها وصانعُه فهي بما جمعته مظهرٌ مِن مظاهرِ قدرته تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إنّ في ذكرِ النّعمِ واستحضارِ مقامِ الله العظيمِ لعبرا عظيمة تتجلّى على النّفسِ؛ لا يستفيدُ منها إلا مَن كانَ عظيمَ الصّبرِ لله في الشّدائد كثيرَ الشّكرِ لهُ في المسرّاتِ، والصّيغتانِ فعّالٌ وفعولٌ للمبالغةِ، والمرادُ كلّ محطّةٍ في الحياةِ له فيها درسٌ يستفيدُ منه ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ واذكريا محمّد ﷺ شأن موسى عليه السلام حينَ أمر قومه بتذكّرِ نعمِ الله العظيمةِ عليهم، و أفردَ النّعمة بالنّظرِ إلى جنسها والمرادُ كلّ النعم، وفي مثلِ هذهِ المحطّاتِ تنبيهٌ إلى أهمّيّةِ ذكرِ النّعم في المنهجِ الدّعويّ للأنبياءِ ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ومن عظيمِ نعمه عليكم نعمةُ الأمنِ؛ وذلك حينَ أبعدكم من فرعونَ وأهله الظّالمينَ؛ الذينَ كانوا يذيقُونكم أشدَّ العذابِ بصورٍ عديدةٍ ومختلفةٍ، وسامهُ الذّل أي أذاقهُ إيّاهُ، وهذا التّذكيرُ يندرجُ ضمن تذكيرِ قومه عليه السلام بأيّامِ الله ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ومن تعذيبهم لكم أنّهم كانوا يقتلُون أبناءكم الذّكورَ ذبحًا ويستبقُون بناتكم خزيًا لهنَّ ومهانةً، وجاءَ فعلُ "يُذبّحون" مضعّفًا لإفادةِ المبالغةِ تنبيهًا إلى تفانيهم وحُبّهم لتلك

الجريمةِ، وظاهرُ إبقاءِ البناتِ رحمةٌ إلاَّ أنّه تضييعٌ لهنّ في الحقيقة؛ وهو نكتةُ التّعبيرِ بالنّساءِ عن البناتِ إشارةً إلى تطلُّعهم لكبرهنَّ و اتّخاذهنَّ لأغراضِ الاستخدامِ وغيرِها، ووراءَ كلِّ هذا تصويرُ خطرِ فسادِ السّلطانِ إذا تُركَ على هواهُ فهو مستعدٌّ للتّضحيةِ بكلِّ النّاسِ من أجلِ صيانة كرسيّه ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وفي ذبحِ أبنائكم واستبقاءِ بناتكم ابتلاءٌ عظيمٌ من الله لكم لينظر ماذا أنتم فاعلون، أو الابتلاءُ في الآيةِ بالخيرِ أي إخراجُه لكم من أسوأ حالاتِ الشّدّةِ إلى الأمنِ التّامِ وراءهُ امتحانٌ عظيمٌ؛ ووجه هذا الرأي أن الأجدر نسبُ الخيرِ إلى الله لا الشّرّ.

ويتوّجهُ الخطابُ للرّسول ﷺ موجّهًا إيّاهُ لدعوةِ النّاس: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وأُذكّرُكم بأنّ الله قد أعلنَ بأنّكم إن شكرتُكم نعمه عليكم زادكم ولم يُنقصكم، و"تأذّن" بالتّشديد مبالغةٌ في الأذانِ أي أعلم بصراحة، وفي هذا التّأذّن بذاته نعمةٌ ففيه تنشيطٌ على الشّكرِ؛ لأنّ النّفس أميل إلى من يتلطّفُ في دعوتها؛ والتّلطّفُ مستفادٌ من عنوانِ الرُّبوبيّةِ (ربكم)، و أكّد الشّرط بالقسمِ وجوابه باللاّمِ دفعًا لظنونِ عدمِ تحقّقِ هذا الوعد الإلهيّ ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فإن لم تشكروا نعمي فعصيتموني وعصيتم رسولي لأسلبنها منكم وأعذبكم بسلبها من أيديكم ، وعذابي في غايةِ الشّدّةِ لا يُطاقُ، ومن لطيفِ التّعبيرِ أن قال في الوعدِ: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ولم يقل في الوعيدِ: لأعذّبنّكم إيجازًا ولكونِ التّعريضِ أوقعَ في النّفس مع ما تضمّن من لينِ الخطابِ، ويُحتملُ أنّ هذا من كلامِ موسى عليه السلام أيضًا ولا يُرجّحُه إعادةُ إسنادِ القولِ له في تتمّةِ الآيةِ: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وإن بقيتُم مصمّمينَ على الكفرِ كلُّكم يا بني إسرائيل وجميعُ أهلِ الأرضِ مِن المكلّفينَ، أو يُقالُ أعاد هنا إسناد القولِ لموسى عليه السلام اهتمامًا بما قاله من كلماتٍ توحي بعقيدته المتينةِ التي ردَّ بها امتنانهم بالإيمانِ وتصوّرهم أنّ الرّسل يحتاجون إليهم ليتقوّوا بهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فاستيقنوا أنّ الله لا يحتاجُ إلى إيمانكم وهو محمودٌ مِن كلّ الخلائقِ وإن كفر به النّاس.

٢٦. حواريين الرسل والكافرين من أقوامهم

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ

نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾

ويتواصلُ كلامُ موسى عليه السلام مع قومه متحوّلاً من أسلوبِ الاستعطافِ إلى أسلوبِ التّحذيرِ والتّوبيخِ؛ وقيل: الكلامُ هنا لمحمّدٍ ﷺ يوجّهُ أمّته وهو الأرجح: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ألم تصلكم أخبارُ مَن كذّب قبلكم بالرُّسل، والاستفهامُ للإنكارِ ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ وهم غالبيّةُ قومِ نوحٍ عليه السلام وغالبيّة قومِ هود عليه السلام المعرفون باسمِ "عادٍ" وغالبيّةُ قوم صالحٍ عليه السلام الذين كان اسمهم "ثمود" و أقوامٌ جاؤوا بعدهم لا يعلم أعدادهم ولا أسماءهم بحصرِها إلاّ الله، وفي الآيةِ تقريرٌ لعلماءِ التّاريخِ والأنسابِ بأنّه مهما اجتهدُوا في وصفِ الأممِ الماضيةِ وتواريخها فلن يصلُوا إلى صورتها الو اقعيَّة لأنّها حقيقةٌ استأثر الله بعلمها ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أتتهم رُسلهم جميعًا بالآياتِ الواضحاتِ التي تدلُّ على صدقِهم ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فضحكوا سخريةً منهم حتّى إذا غلبهم الضّحكُ جعلوا أيديهم في أفواههم ليتمالكوا أنفسهم؛ والتّعبير بالرّدّ يقتضي تكرار ذلك منهم، أو ردُّوا أيديهم وغرضُهم توجيهُ مَن يدعوهم إلى أن يسكُت، أو ضميرُ "أفواههم" للأنبياءِ و أقوامهم أي أسكتُوهم جبرًا، وعلى كُلٍّ فردُّ الأيدي هكذا مع اختلافِ أحوالِ الأمم لا يخلُو أن يكون تمثيلاً يُقرّبُ صورةَ استهزاءِ الأقوامِ بالرُّسلِ ولا تلزمُ منه حالةٌ معيّنةٌ، واستعمل فاء التّعقيبِ دلالةً على سرعتهم في الاعتراض ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ وصرّحوا لمن جاء يُبلّغُ لهم وحي الله بقولهم: نؤكّدُ لكم بأنّنا رادُّون ما بُعثتم بهِ إلينا، واعتر افُهم بالرّسالةِ نزولٌ إلى زعمِ مَن دعاهُم أو قالوه استهزاءً ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ و إنّنا لنجدُ أنفسنا في شكٍّ كبيرٍ يبعثُ على قلقٍ واضطرابٍ في صدق ما جئتمونا به، والشّكُّ الظّنُّ؛ والرّيبة القلق النّاتجُ عن ذلك، أو مُريبٍ تأكيدٌ للشّكِّ كقولنا: ظلٌّ ظليلٌ. أجابتهم الرّسل: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أتعتقدُون بأنّ في وجودِ الله شكًّا، والاستفهامُ مسوقٌ للتّوبيخِ والإنكارِ أي ليس في الله شكٌّ البتّة. ثمّ راحُوا يعرضون عليهم إحدى أظهرِ دلائل معرفته ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنّه مبدعُ السّمواتِ العلا وما حوينَ ومنشئُ الأرضِ الفسيحةِ ذاتِ المخلوقاتِ العجيبةِ وما بينَهما من غيرِ مثالٍ سابقٍ ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ إنّه خالقٌ رحيمٌ بكم يناديكم من عليائه لتذعنوا له فيمحو زلاّتكم كلّها، ونسبُهم الدّعوة إلى الله لَمّا اعترضُوا عليهم بقولهم: " تَدْعُونَنَا" كأنّهم قالوا لهم إنّه هو الذي ناداكم لا نحنُ فاستجيبُوا له، ومجيءُ "يغفر" بالمضارع مع "من" التّبعيضيّةِ لإفادةِ دوامِ مغفرته لهم كلّما تابُوا من ذنبٍ ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ والله قد حدّد لكم أجلاً ترجعُون فيه إليهِ فأسرعوا إلى التّوبةِ قبل نهايته لئلاّ يعاقبكم، أو الآية بمعنى إن تُبتم إلى الله أمدَّ في آجالِكم ومتّعكم ولم يُعاجلكم بالعقوبةِ؛ وليس في هذا تقديمُ الأجلِ أو تعدّدُه على الفردِ و إنّما فيهِ

إرشـــادٌ للعملِ بما فيهِ الإســـعادُ، وكلٌّ قد علم الله أجله قرب أو ابتعد. ردّت أقوامُهم على دعوتهم بما لا احتجاجَ فيه أملاً في تعجيزِهم: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ لا نراكم في الو اقعِ إلاَّ من جنسنا البشريّ؛ تأكلُون وتشربُون وتتزوّجون... فما الذي فضّلكم علينا؟ وقد أصابُوا في أنّهم بشرٌ لكنّهم لم يكونوا مثلهم بمثلٍ ســـواء؛ فبينهم فوارقُ عظيمة في الخصـــال والأخلاقِ غير أنّ المعرض يتجاهلُ ذلك ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ جئتُم بدعوى الرّسالةِ لتُبعِدونا عمّا تركَ لنا آباؤنا وأجدادنا من الدّيانة، ووجهُ المكابرةِ والتّعجيزِ هنا أنهم علّقُوا قضيّتهم بآبائهم الذينَ لا سبيلَ لجدالهم لأنّهم قضوا نحبهم؛ ولم يقولوا تصـــدُّونا عمّا اقتنعنا به من العبادةِ ﴿فَأْتُونَا بِسُـــلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وإذا أبيتُم إلاَّ أن نتركَ ما يعبُدهُ آباؤنا ونتّبعَكم فقدّموا لنا برهانًا واضحًا يحملنا على ذلك، والسّلطانُ في القرآنِ الحجّة.

ردّتِ الرُّسل على أقوامهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أجل نحنُ خلقٌ بشريٌّ مثلكم كما ترونَ، وزيادةُ "لهم" هنا لأنّها مقالةٌ قدّمت إليهم جوابًا على اعتراضٍ اختصّـــوا به، وقد مهّدُوا بهذا ليقولوا: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ غير أنّ الله يختارُ مَن يشاءُ مِن عبادِه لتحمّلِ الرّسالةِ والتّبليغ، وذكرُ الامتنانِ ليُفيدوا بأنّهم أعطوا ما لم يطلبُوه و أنه محض عطاء رباني، ولم يُسـهبوا في ذكرِ خصائصهم وخصالِهم تواضعًا، ولأنّ مقام كسبِ قلوبِ أقوامهم يأباهُ، وفي هذا أيضًا احتجاجٌ بالمنطقِ أي لا يُمكنُ أن يوحي الله إلى كُلّ النّاسِ. ثمّ يردُّ الرّسـل على طلبِهم السّـلطان المبين بقولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وليسَ لنا أن نقدّم لكم أيّ برهانٍ على صدقِ ما جئناكم به إلاَّ بتوجيهٍ إلهيٍّ، وفي هذا ردٌّ على اســتعجالِهم رُؤية البراهين وتوجيهُهم إلى الاكتفاءِ بما جعلهُ الله لهم وليس نفيًا لوجودِ حجّةٍ لهم على صـــدقِهم. وســـدًّا لباب مجادلةِ أقوامهم في إذنِ الله زادُوا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وعلى اللهِ وحدهُ اعتمادُ أهلِ الإيمان وتوكّلهم؛ فهم لا يقومون إلاَّ بما أمرُوا به، أو يُقال عبّرُوا بلامِ الأمرِ دون "على الله توكّلنا"؛ ليكونَ كلامُهم دعوةً ضمنيّةً لأتباعهم الصّالحين -وهم مندرجون فيه من بابٍ أولى- بأن يفوّضـــوا أمرهم إلى الله إذا أقبل قومهم على اضـــطهادِهم بعد تأجيلِ تقديمِ الحججِ لهم ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُـــبُلَنَا﴾ وكيفَ لا نعتمدُ على اللهِ في كُلِّ أمورِنا وقد بصّـــرنا بفضـــله طُرق الهدايةِ التي نفوزُ بها؟ والاســـتفهامُ إنكاريٌّ لعدمِ اســـتحقاقهم التّوكّل، وعدّدُوا السّـــبل بالنّظرِ إلى منطلقِ خُروجهم من الزّيغِ؛ كأنّهم قالُوا أخرجنا مِن طرائق الضّـــلالِ فاتّحدنا على صـــراطِ الحقِّ، أو السّبل هي شُعب الدّين التي تقُوم به ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ و إنّا عازمون على الصّبرِ إذا ما آذيتمونا، وفي الجملةِ تقديرُ قسمٍ أي: والله لنصبرنّ، وعبّرُوا بطريقِ الإيجازِ عن الصّبرِ بالمضارع وعن أذاهم بالماضي لإفادةِ أنّهم سيصبرون على أيّ أذى آتٍ كما صبروا على أذى الماضي، ومقولتُهم هذه ليســـت دعوةً إلى مزيدِ ظُلمهم؛ و إنّما هي ســـدٌّ لطمعِ الكفّارِ في فتنِهم عن دينِهم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وعلى الله وحدهُ يتوكّلُ كُلُّ متوكّلٍ صادقٍ في توكّله؛ وهي مِن كلامِ الرّسلِ، ويُحتملُ أنّها تذييلٌ

من كلامِ الله تأكيدًا للتّوكّلِ السّابق؛ كرّرهُ ليبدأَ بشرطِ الإيمانِ ثمّ ليُفيد أنّ تجدّد التّوكّلِ علامةٌ للصّدقِ فيه.

٢٧. تهديد الكافرين لرسلهم وبيان عاقبتهم

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾

وبناءً على صراحةِ الرُّسل بأنّ ما يجدُونه من الأذى لا يفتنُهم مهما كان؛ جاءَ ردُّ الكفّارِ عليهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ إنّا عازمون على أمرين تجاهكم أحدُهما واقعٌ لا محالةَ: إمّا أن نخرجكم قسرًا من بلادنا أو ترجعُوا إلى ديننا الذي تركهُ أسلافُنا، وأظهرهم بعنوانِ الكفرِ لزيادةِ تسجيلِ الكفرِ عليهم، وأكّدُوا توعّدهم تلويحًا بحميّةِ نفوسهم المتعصّبَة، ونسبُ الأرضِ لأنفسهم مع أنّها مشتركةٌ بينهم يوحي بأثرِ الاختلافات الدّينيّة في إنشاءِ النّزاعاتِ الإقليميّة، والتّعبيرُ بالعودِ (لتعودنّ) مع أنّ رسلهم لم يُشركُوا إيماءٌ إلى أنّهم يرون طريقهم هو الأصل وتاركه منحرفاً؛ أو أن الخطاب وإن كان موجها للرسل ظاهرا إلا أنهم غلبوا أتباع الرسل مِن الصّالحينَ الذين تابُوا عن الشّركِ. وفي ساعةِ انغلاقِ الأبوابِ أمام الصّابرِ المتوكّلِ المؤمن يفتحُ الله باب فرَجه من غيرِ تأخيرٍ ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ فأخبر الله الرّسل المهدّدينَ بأنّ الله متوعّدٌ أقوامكم الذين ضايقُوكم بالهلاكِ، وذكرهُم بعنوانِ الظّلمِ تنبيهًا إلى علّةِ إهلاكهم وليُحذّر غيرهم ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ووعدٌ منّي أن أستخلفكم أرضَ أقوامكم الذينَ عمرُوها بالتّسلّطِ والقهرِ لتعمرُوها بالفضلِ والخيرِ ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ذلك الوعدُ بالاستخلافِ متحقّقٌ دائمٌ لكلّ مَن قدّر شأنَ الله وخافَ وعيدهُ الشّديد، وكرّر الخوف لأنّ الأوّل بمعنى الإجلال له والثّاني بمعنى التّوجّس من غضبه؛ فالأوّل علّةٌ للثّاني؛ وفيه تعريضٌ أيضًا بعدمِ خشيةِ المشركين له، ومقامُ الله مجازٌ عن شأنه العظيم.

ثمّ يتواصلُ الكلامُ في شأنِ إهلاكِ الكفّارِ والاعتبارِ بما جرى لهم ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وتضرّع أهلُ الإيمانِ إلى الله طالبينَ النّصرَ؛ وفي الكلامِ تقديرٌ فاستجابَ لهم؛ وحينها خسرَ كُلّ

طاغٍ مخالفٍ لأوامرِ الله، والاستفتاحُ طلبُ النّصرِ على الأعداءِ؛ وهو للمؤمنينَ على الكافرينَ ويجوزُ العكسُ، والجبّارُ هو المتعالي بالباطلِ وصِفتُه تلك مسبّبةٌ للعناد، والعنيد الطاغي المتجاوزفي الظلم، والصّيغتانِ للمبالغة؛ وصف بهما الكفّار تنبيهًا للسّببِ الذي خابُوا به، ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ وبعد الخيبةِ الدّنيويّة لذلكم الجبّارِ العنيدِ ينتظرُهُ عذابُ جهنّم الفظيع، وتأويلُ الوراء استعارةٌ لحالِ الغافلِ عن أمرٍ يهمُّه وخلفهُ داعيهِ يطلبه؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف ٧٩] ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ ومن فظاعة ذلكم العذاب أنّ صاحبه بعد أن يُلقى فيه يقدّمُ له إذا عطش ماءٌ صديدٌ، والصّديدُ لُغةً ماءٌ خاترٌاشتدَّ غليانه؛ وهذا أنسبُ لعدمِ استساغته له؛ واشتهر في التفسير بالمأثورِ أنّه إفرازاتُ أجسادِ أهلِ النّارِ من ماءٍ ودمٍ وقيحٍ ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يُحاولُ شربَ ذلكم الماء لحاجته إليه لكن لا يكادُ يقوى على ابتلاعه لمرارته وحرارته وقذارته، والتّجرُّع تناول المطعوم غيرِ المرغوبِ فيهِ عن قسرٍ أو احتياجٍ، والاستساغةُ البلعُ والإدخالُ إلى الجوفِ ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ وتأتيه أسبابُ الموتِ من كلّ جانبٍ وعلى كُلّ حالٍ إلاَّ أنّ قابليّة الموتِ انتزعت منه بقدرةِ الله فهو حيٌّ أبدًا ليذوقَ جزاءَهُ، و إتيانُ الموتِ على تلك الحالِ استعارةٌ لحالِ الذي اشتدَّ الوضعُ عليه وضاق ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ووراء ذلك العذابِ الذي يلقاهُ عذابٌ فظيعٌ ينتظرُه كالضّربِ بالمقامع والشّهيق والزّفير، والمرادُ بأنّ تلك صورةٌ من العذابِ ومعها وبعدَها صورٌ على طولِ الأبدِ، وغلظُ العذابِ استعارةٌ عن الشّدّةِ والقسوة.

ثمّ يأتي إلى بسطِ حالِ الكفرةِ للاعتبارِ بما جعلهم يستحقُّون به كلّ ذلك العذاب ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ الحالة العجيبةُ لأعمالِ الكافرينَ الجاحدينَ لقدرِ الله مثالُها كحال الرّمادِ الذي أسرعت به الرّيحُ في يومٍ عاصفٍ؛ أي شديدِ الرّيح، والمرادُ بأعمالِهم هنا ما يبدُو ظاهرُها خيرًا كالإحسانِ والإنفاقِ، ولعلّ وراء التّمثيلِ بالرّمادِ حُسنَ اختيارِ المثل بما شاعَ لدى العربِ من كونِ كثرةِ الرّمادِ كنايةً عن أفضلِ الأعمالِ لديهم وهو قِرَى الضّيف ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ لا يستطيعُ أولئك الكفّار في يومِ القيامةِ الإبقاء على شيءٍ من أعمالِهم ليرجوا من خلالها ثوابًا؛ كما لا يستطيعُ المرء جمع الرّمادِ الذي طيّرته الرّيح ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ تلك حالُ مَن ضلَّ عن نهجِ الله ضلالاً لا شكّ فيه.

وحينَ كان سببُ إحباطِ أعمالِ أولئك الكفّار الشّرك بالله أشارَ إلى عظيمِ مقامه تنبيهًا إلى تخصيصِه بالعبادةِ وحدهُ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ألم تتأمّل أيّها العاقلُ البصير أنّ الله وحدهُ مبدعُ السّمواتِ العلا بما حوت ومبدعُ الأرض العجيبةِ بما فيها؛ إبداعًا بالحقّ، نبّه بهذا إلى أنّه لم يخلُق كلّ ذلك عبثًا و إنّما وراء ذلك مقصدُ العبوديّةِ المحضةِ له تعالى. ثمَّ يُشيرُ إلى أنّه غنيٌّ

عن عبادتنا له بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إن شاء الله إفناءكم أيّها النّاس بسببِ الشّركِ أو العصيانِ أفناكم فهو قادرٌ عليهِ كما قدر على الإيجادِ؛ و أبدلكم بناسٍ آخرينَ خيرٍ منكم يعبدُونه وقد يكونون عصاةً فيسري نفسُ القانون عليهم، والظّاهرُ أنّ الآية تأكيدٌ لقوله السّالف: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وليس ذلك صعبًا على الله ولا مستحيلاً عليه، فهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، والعزيزُ على النّفس المتعاصي عليها بمكانته وقوّته.

٢٨. تبرؤ المستكبرين من الضعفاء، وتبرؤ الشيطان من أتباعه يوم القيامة

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)﴾

وفي خضمِّ الحديثِ عن عذابِ الكفّارِ الأخرويّ يقصُّ الله موقفًا من مو اقفِ الحشرِ ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وعُرض الكفّارُ جميعًا على الله في موقفِ الحسابِ الأكبرِ بعدَ البعثِ من القبورِ، والتّعبيرُ بالماضي مع أنّ البروزلم يقع بعدُ لإفادةِ تحقّقه وكأنّه قد وقع، و"جميعًا" تأكيدٌ لحشرِ كُلِّ أصنافِ النّاسِ على صعيدٍ واحدٍ ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ فخاطب الأتباعُ المستضعفُون قادتَهم المتسلّطينَ عليهم في الدّنيا بقولهم: لقد كنّا نتبعُكم فيما تأمروننا به من شتّى صنوفِ المحظوراتِ، ونَعَتَهُم بالضّعفاءِ مجازًا عن كونِهم محكومينَ ومسيّرينَ، ولم يقل عن القادةِ: "تكبّرُوا" بل قال: "استكبروا" لإفادةِ غلوّهم في خصلةِ التّكبّرِ التي هي شعارُهم، وذكرُ مثلِ هذهِ المو اقفِ تضمّن تحذيرًا مِن هولِ يومها ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهل تدفعون اليوم عنّا ولو شيئًا يسيرًا من العذابِ الذي كُتب علينا، والاستفهامُ تقريعٌ وتوبيخٌ مع تحسّرٍ، أو المرادُ فهل تتحمّلُون عنّا شيئًا من عذابنا، ولعلّ هذا وعدٌ دنيويٌّ من قادتهم ظهر لهم الآن غررُهم فيه. أجابهم القادةُ معتذرينَ: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ لو حملنا الله على الهدايةِ أو وفّقنا إليها لحملناكم عليها وأرشدناكم إليها؛ لكن اخترنا الضّلال فخذلنا الله فاتّبعتمونا على ذلك فكانَ حاصل أمرنا واحدا، ويُحتملُ أرادُوا لو أرشدنا الله إلى طريقٍ للخلاصِ من هذا العذابِ لأرشدناكم إليه ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ لا فرقَ يحصُل بينَ اجتهادنا في التّضجّرِ مِن العذابِ والتزامنا الصّبرعليه؛

فالعذابُ دائمٌ لا منجى لنا منه، والجزعُ نقيض الصّبر، والمحيص المنجى؛ يُقال حاص عن الحادث أي نجا منه، وهذا التّقرير منهم ناتجٌ عن تجربتِهم وخبرتِهم للحالينِ أو هو تذكيرٌ لبعضِهم بما أخبرهم الله به.

وفي سياقِ مجادلةِ الْمُضلّينَ للمضلّلين يحكي الله موقفَ مصدرِ الإضلالِ الأكبرِ ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وقام إبليسُ الشّقيّ على منبرٍ يسمعُه سائرُ أهلِ النّارِ لمّا فُرغ من الحسابِ ودخلَ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ وكُبَّ أهلُ النّارِ في النّارِ، والله قدّر هذا القول و أنطق الشّيطان إظهارًا للحقيقةِ كما أنطقَ الجلود والجوارح لتشهدَ على الأشقياء ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إنّ الله قد أخبركم عن ثواب السّعيدِ بالرّضوانِ والجنّةِ وحذّركم من مصيرِ الشّقيّ في النّارِ واللّعنةِ فصدقَكم وعدهُ، أمّا أنا فوجّهتُكم إلى عكس ذلك تمامًا وكذبتُ عليكم؛ ووعدُ الشّيطانِ كائنٌ على كُلّ امرئٍ بما يُناسبُه، وفي "وعد الحقّ" إضافة الموصوفِ إلى صفةِ الحقّ تأكيدًا لتحقّقِ الوعد؛ ويقابلُه وعدُ الشّيطانِ الباطل ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ وليسَ لي أيُّ وسيلةٍ قهرتُكم بها لتتّبعوني؛ وغايةُ ما في الأمرِ أنّي دعوتُكم إلى طريقِ النّارِ بالتّزيينِ والإغراءِ فاستجبتُم لدعوتي، والسّينُ والتّاءُ في الاستجابةِ للمبالغةِ فهي آكد من الإجابةِ، ويجوزُ تأويلُ السّلطانِ بالحجّةِ أي اتّبعتموني عن هوى بلا دليلٍ ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فلا تلقُوا اللّومَ عليَّ فالغلطُ منكم كلّه واللّومُ عليكم وحدكم حينَ لم تتفكّرُوا في العواقبِ جيّدًا مع أنّ الله صرّح لكم بأنّي عدوّكم، وفي بلوغِ هذهِ المعاني في نفوسِ الأشقياء عذابٌ نفسيٌّ إضافةً إلى ما هم عليهِ من العذابِ ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ ولستُ بقادرٍ على إنقاذكم من العذابِ الذي سُقتُكم إليهِ كما أنّكم لا تقدرُون على إنقاذي منه؛ فالغريقُ لا يستنجدُ بالغريقِ، والمصرِخُ اسمُ فاعلِ (أصرخ) الرّباعي وهو مُجيبُ المستغيثِ الصّارخِ؛ يُقال: استصرخني فأصرختُه ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ إنّي غيرُ معترفٍ لكم الآن جعلَكم إيّايَ في الدّنيا شريكًا مع الله في السّمعِ والطّاعةِ، وهنا تمّت خطبةُ إبليس ويُحتملُ أنّ منها أيضًا: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إنّ الظّالمينَ أنفُسهم باتّباعِ الشّيطانِ على الشّركِ والعصيانِ يستحقُّون في الآخرةِ عذابًا مُؤلما، وعبّر بصيغةِ فعيلٍ "أليم" لنكتةِ المبالغةِ، ولعلّ الحكمة من ذكرِ هذا الموقفِ إثارةُ بغضِ الشّيطانِ في نفوسِ الخلقِ و إقامة الحجّةِ عليهم بحقيقةِ منهجِه في تغطيةِ الحقّ والإضلالِ عنه؛ ومنه هذا المشهدُ الأخرويّ.

ومقابلةً لذكرِ فريقِ الأشقياء ومصيرِهم يذكُرُ السّعداء ومنازلهم ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ و أكرم الله أهل الإيمانِ العاملينَ بمقتضاهُ أعمال الخيرِ والصّلاحِ بالدّخولِ والإقامة الأبديّةِ في جنّاتِ النّعيمِ؛ ومن صورِ نعيمها أنّ صنوف الأنهارِ تسيرُ في جنباتِها وتحتَ غُرفها وقُصورِها، وفي إيقاعِ الإدخالِ على المؤمنينَ تلويحٌ بأنّهم دخلُوا الجنّة تفضّلاً علاوةً على

صلاحِ أعمالِهم، وعبّرعن الجنّاتِ بالجمعِ وهي في الأصلِ جنّةٌ؛ إشارة إلى تنوّعِ نعيمِها وتجدّدِه وكأنّ كلّ لحظةً منها لا تشبهُ أختها وكلّ محطّةٍ فيها تختلفُ عن غيرِها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ يبقون في خيرِ الجنّاتِ بقاءً لا نهايةَ لهُ، والتّنبيهُ على إذنِ ربّهم تلويحٌ بتفضّلِه عليهم في الدُّخولِ كما أنّه إشارةٌ إلى اهتمامٍ خصّه بهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يتلقّونَ في دُخولِها وفي شتّى مو اقِفِها تحيّةَ السّلامِ؛ من الله والملائكةِ والمؤمنينَ، وهي تحيّةُ الإسلامِ المعروفةِ، والتّنويهُ بالتّحيّةِ إيذانٌ على التّلاقي والتّقابُلِ المتجدّد بين المؤمنينَ.

٢٩. مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة

﴿ أَلَمْ تَرَكَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ(٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾

وفي سياقِ ذكرِ أحوالِ المؤمنين والكافرينَ يضربُ الله مثلاً لكُلٍّ منهما ﴿أَلَمْ تَرَكَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ألم تتأمّل أيّها البصيركيفَ أنّ الله جعل مثالَ كلمةِ الدّينِ كشجرةٍ عرفت بطيبِ ثمرِها ووفرةِ منتوجها؛ فكما أنّ تلك الشّجرة مظهر الخيروالنّفعِ الدّائم فكلمةُ الدّينِ كذلك، وتركيبُ "ألم ترَ" شاع ورُوده في القرآنِ لنكتةِ إيقاظِ الأفهامِ وتشويقِها لما سيُقال؛ وقد زاد اسم "كيفَ" على التّشويقِ تشويقًا لمعرفةِ صورةٍ عجيبةٍ في بابِها، والكلمةُ الطّيّبة هنا مجازٌعن كُلّ كلامٍ حسنٍ أريدَ به الدّعوة إلى الله وعلى رأسه القرآن كلام الله؛ وجمهورُالمفسّرينَ على أنّها جملةُ "لا إله إلاّ الله" ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ بقدرِرُسوخِ جملةِ التّوحيدِ في القلبِ تتفرّعُ عنها أعمالُ الخيرِ؛ كجذع تلك الشّجرةِ الضّاربة في الأرضِ بجذُورها وأغصانُها ممتدّةٌ في السّماءِ؛ وبقدرِارتفاعِ الشّجرةِ يُتصوّرُرسوخُها في الأرضِ، والرّوايةُ جاءت على أنّها النّخلةُ[١٢] ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وبما أنّها على تلك الحالِ فهي تقدّمُ ثمارَها كلَّ موسمٍ بقدرةِ الله، فلا يعتريها جفافٌ لغورِجذورِها ولا تقتلِعها رياحٌ لشدّةِ رسُوخها كما أنّها لا تشحُّ في العطاءِ لعظمةِ هيكلِها، والمرادُ بأنّ المؤمن الصّادق على تلك الحالِ كلّما دعا إلى الله ونصحَ فكلُّ سعيه خيرٌ، وفي الآيةِ نعتٌ محذوفٌ أي كُلَّ حينٍ جعلهُ الله وقتًا لإثمارِها، أو يؤوّلُ ذلك

[١٢] أَبُو عُبَيْدَةَ قَالَ: بَلَغَنِي عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ مِنَ الشَّجَرَةِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ"؟ قَالَ: فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرَةِ الْبَرَارِي، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَدِّثْنَا مَا هِيَ؟ فَقَالَ: "هِيَ النَّخْلَةُ الْمُبَارَكَةُ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا". رواهُ الرّبيع، ب: نسمة المؤمن ومثله، ر:٧٠٢(٢/٢٧٨).

بادّخارِ ثمارِها وإمكانِ إخراجها كلَّ حينٍ ﴿وَيَضْـرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ومن شـأنِ الله تعالى أنّه يعرضُ للنّاسِ الأمثال والمواعظ رجاءَ تذكّرِهم وتفكّرِهم، وتضـمّنَ هذا تزكيةً لمنهجِ التّربية بضربِ الأمثالِ وتلويحًا بأثرِه في الإقناعِ والإفهام.

ومقابلةً لمثلِ المؤمن يعرضُ الله مثلَ الكافرِ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَـجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ومثالُ صاحبِ كلمةِ الكفرِ والشّركِ والسّوءِ إشارةً إلى الكافرِ والعاصي؛ كشجرةٍ سيئةِ الثّمارِ اقتلعتها الرّياحُ من الأرضِ لضعف جذعِها وهوانِ جذورِها؛ فهي تتقلّبُ من موضعٍ إلى آخرَ لا يُرى لها اسـتقرارٌ، والاجتثاث الاقتلاعُ من الأصـلِ؛ مشـتقٌ من الجثّةِ، وكونُها فوقَ الأرضِ مبالغةٌ في عدمِ رُسـوخِها وكأنّها لم تمتلك جذورًا ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يشـدُّ الله من قلوبِ أهلِ الإيمانِ بكلمةِ التّوحيدِ والدّعوةِ إلى الله فلا يتزعزعون عن دينِهم في الحياةِ الدّنيا؛ ولا هم في الآخرةِ يحزنون أو يخافُون لرُسـوخها في قلوبهم، فعَنْ الْبَرَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُوتِيَ ثُمَّ شَـهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُـولُ اللَّهِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية[١٣] ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ ويخذلُ الله الذينَ ظلموا أنفسهم بالإشراكِ والمعاصي عن نورِ الإيمانِ فلا يذوقون سـعادةَ الدّنيا ولا يجدُون رحمةً في الآخرةِ، أو يخذُلُهم عن جوابِ سُـؤالِ القبرِ ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَـاءُ﴾ والله صاحبُ الإرادةِ والسّلطةِ المطلقةِ يفعلُ ما يشاءُ فعلهُ وفقَ حكمةٍ وعدلٍ، وتجدَّدَ ذكرلفظِ الجلالةِ في الجملِ الثّلاث لتستقلّ كلٌّ منها وتكون مثلاً يُحفظُ.

٣٠. كفران النعم سبب للشقاء، والأمر بالصلاة والإنفاق وتذكير بنعم الله

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْـلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِـلُّوا عَنْ سَـبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِـيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّـلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِـرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَـخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَـخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَـخَّرَ لَكُمُ الشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَـخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾

وهكذا بعد ذكرِ الدّينين يأتي إلى بيانِ أثرِ دينِ الكُفرِ على أصحابِه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ ألم تنظر أيّها العاقل المتأمّل إلى حالِ الذينَ قابلُوا نعمَ الله بالجُحودِ والكفران، والاسـتفهامُ

[١٣] رواهُ البخاريّ، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذابِ القبر، رقم:١٣٦٩(٢/٩٨).

للتّعجيبِ من حالِهم، والنّعمةُ جنسُ صنوف النّعمِ الكثيرةِ، والأقربُ أنّ في الآيةِ حذف مضافٍ أي بدّلُوا شكرَنعمةِ الله كُفرًا، أو يُقالُ: أزالُوا النّعمةَ عنهم بأنفُسهم بسببِ كُفرِهم؛ وذلك معنى: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ وبكُفرِهم بنعم الله جلبُوا لأنفُسهم و أتباعِهم حياةَ الشّدّةِ والضّيقِ؛ أي قابلَ الله تبديلَهم نعمتَه بتبديلِ حالهم من حسنٍ إلى سيّئ، ويجوزُ تأويلُ دارِ البوارِ بجهنّم، والبوارُ الخسارةُ والهلاك، والكلامُ عن قريشٍ التي حاربت الرّسُول ﷺ لكنَّ العبرة بعمومِ اللّفظِ، والبوار: الهلاك ، وأَصله الكساد استعير للهلاك لجامع عدم الانتفاع ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ عذابُ جهنّم الأبديّ ينتظرُهم وساءَ مقامها منزلاً لمن نزله ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وقد اتّخذوا شركاء لله في العبادةِ فعبدُوهم حتّى أضلُّوا النّاس عن طريقِ الله المستقيمِ حيثُ اتّبعوهم على ذلك، والأنداد جمعُ ندٍّ وهو المماثلُ في الفضلِ أو السّوءِ ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أعلمهم أيّها الرّسُول ﷺ بأنّكم ستستلذُّون بملذَّات الحياةِ قليلاً و أنتم آيلُون لا محالةَ إلى مُقامِ النّارِ السّرمديّ، وعبّرعن التّمتّعِ بالأمرِ تهديدًا بعاقبةِ الفعلِ لا إذنًا بهِ مبالغةً في بيانِ أنّ الوعيدَ حاصلٌ عليهم بركوبِهم ما يُوجبُه.

وبعدَ هذه الصّورةِ يأمرُالله الرّسُول ﷺ بأن يوجّه أهل الإيمانِ لما فيهِ نجاتُهم من ذلكم الخزيِ الأخرويّ ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وجّه عبادي المعتنقينَ للإيمانِ إلى الاعتناءِ بالصّلاةِ المفرُوضةِ عليهم والاجتهادِ في المندُوبِ منها، وإضافةُ العبادِ له في مثلِ هذا المقام فيهِ نكتةُ تشريفِهم بمناسبةِ ذكرِ أقدسِ العباداتِ، واختارَالمضارع في فعلي الصّلاةِ والإنفاق لأنّ الأمرَ أمرٌبالدّوامِ والاستزادةِ وليس للإنشاء الجديد ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ويبادرُوا إلى الإنفاقِ في وجوهِ الخيرِ كلّها متى تيسّرلهم ذلك سرًّا أو إعلانًا، والتّذكيرُبالرّزقِ فيه دعوةٌ لطيفةٌ إلى نيلِ شرفِ الإنفاقِ في وجوهٍ لو شاء الله لأغناها بفضلِه من بادئ الأمرِ، وفتحُ بابِ الإنفاقِ على جميعِ الأحوالِ تسهيلٌ لجريانِ المنافِع؛ فليس الإسرارُإخفاءً للنّعمةِ كما أنّ الإعلان ليس رياءً بها إذا صفا القلبُ؛ على أنّ تقديمَ الإسرارِ منبئٌ عن أولويّتِه، والاهتمامُ بشأنِ الإنفاقِ بعد الصّلاةِ في العهدِ المكّيّ جمعٌ بين التّربيةِ الرّوحيّةِ والمادّيةِ؛ كما أنّه إشارة إلى كونه علامة الإيمانِ بالله في الإخلافِ وباليومِ الآخرِ في الإبقاءِ لهُ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ عليهم بالمبادرةِ إلى أعمالِ البرّقبل أن يفاجئهُم قُدومُ أمارات يومٍ لا يتأتّى فيه ابتياع لفداءِ النّفسِ من العذابِ، ولا تبنى فيهِ صداقةٌ للشّفاعةِ والتّخليص منه، و"خلالٌ" جمعُ خُلّة بمعنى صُحْبَة أو مصدرخالَّهُ أي اتّخذهُ خليلاً.

ثمّ يأتي إلى تصويرِعظمةِ الله تثبيتًا لقلوبِ أهلِ الإيمانِ ودعوةً لغيرِهم ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الله هو الذي أنشأَ السّمواتِ العالياتِ بما فيهنّ من كواكبَ ونجومٍ و أقمارٍو أبدعَ الأرضَ في سهولٍ وجبالٍ وبحارٍ، والمرادُ بذكرِهذهِ النّعمِ المشهودةِ لكُلّ أحدٍ بيانُ أنّ الله هووحدهُ المستحقّ للعبادةِ

كما أنّه وحدهُ الخالق المبدع؛ وقد افتتحَ هذا المقطع بلفظِ الجلالةِ تأكيدًا لذلك ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ وهو الذي أنزلَ من السّماءِ ماءً عذبًا بلُطفٍ ورحمةٍ؛ فجعلهُ سببًا لإخراجِ شتّى صنُوفِ الثّمارِ التي تقتاتُون منها أيّها النّاس، و"السّماء" ما علا فوق العبادِ من جوٍّ، و"الرّزقُ" هنا جميعُ ما يُنتفعُ به وأصلُه النّبات؛ مطعومًا وملبُوسًا وغير ذلك ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ وذلّلَ لأجلِكم السّفنَ العظيمةَ صناعةً وإدارةً؛ لتسيرَ فوقَ البحارِ العميقةِ الواسعةِ بإذنِ الله وقدرته؛ تنقُل العباد والمتاع وتقرّبُ المسافاتِ، والتّسخير التّذليلُ والتّطويع، ويندرجُ ضمن الفلكِ جميعُ وسائلِ الإبحارِ والغوصِ التي يسّرها الله ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ ويسّرَ لكم الانتفاع بمياهِ الأنهارِ الجاريةِ لشُربِكم وشُربِ حيوانكم وسقي زُروعِكم ونقل بضائعكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ وذلّلَ لأجلكم الشّمس العظيمةَ المضيئة والقمر البديع المنير يعملانِ بانتظامٍ لتسهيلِ نظامِ حياتِكم، وقد أثبتَ العلمُ اليوم الأثر البالغ لهذهِ الحركة المنتظمة في حياةِ النّاسِ ومعاشِهم، ومع اختلالِها أو توقّفِها لن تقُوم حياةٌ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ومن خلالِ دورةِ الأرض حول الشّمسِ يسّر لكم نظام اللّيلِ والنّهارِ؛ ترتاحُون في اللّيلِ وتسعون في النّهارِ، وجدّدَ "لكم" في كُلّ مقطعٍ إمعانًا في بيانِ تفضّلِه علينا وتخصيصه النّعمةَ لنا. ثمَّ قال: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وقدّم لكم من كُلّ صنوفِ النّعم التي احتجتُم إليها قبل أن تسألُوهُ إيّاها، والسّؤالُ هنا منصرفٌ إلى معنى تغطيةِ الحاجةِ لِكُلّ امرئٍ بحسبِ حالِه بما شأنُه أن يطلُبه لنفسه؛ جلبًا كالمالِ والولدِ ودفعًا كصنُوفِ الضّررِ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ وإن تشرعُوا في عدِّ النّعمِ التي أعطاها الله لكم من حيثُ أفرادُها أو أنواعُها فلن تصلُوا إلى عددٍ يُحصيها بتمامِها وذلك لكثرتها ولعدمِ تصوّرِ شُعبها، والمرادُ فلن تستطيعُوا استيفاءها حقَّها بالشّكرِ لكن اجتهدُوا، والإحصاء اشتقَّ من الحصى حيثُ كان القدماء يعدُّونَ بها الشّيء الكثير تجنّبًا للغلطِ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إنّ طبيعةَ الإنسانِ الشّقيّ ظُلمُ نفسه بالمعاصي واستعمال النّعمةِ في غيرِ محلّها ممّا يُسبّبُ لنفسه حرمانها؛ ومن طبيعتِه كذلك مقابلةُ فضلِ اللهِ بكُفرِ نعمتِه، وقيل: الظّلُوم كثيرُ الاشتكاءِ في الضّراء ويُقابلُه الكفّار للنّعمِ في السّرّاء، والتّعبيرُ بصيغةِ المبالغةِ ناسبَ كثرةَ النّعمِ التي ظلمَ نفسهُ بكُفرِها.

٣١. دعاء إبراهيم عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا

فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾

وبعد الحديثِ الطّويلِ في شأنِ دعوةِ المشركينَ يتعرّضُ إلى ذكرِ أبي الأنبياءِ إبراهيم عليه السلام إمامِ الدّعوةِ إلى التّوحيدِ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ واذكر أيّها الرّسول ﷺ دعاءَ إبراهيم عليه السلام حينَ قال مناجيًا ربّهُ: يا ربِّ صيّر مكّةَ آمنةً من جميعِ المخاوِف، وتخصيصُ دعائه بمكّةَ لكي تكون قبلة كلّ مسلمٍ يأتيها لا يخافُ إرهابًا فيها ولا إرعابًا، وعرّفَ "البلدَ" في هذا الموضِع لأنّ الكعبة قد اكتملَ بناؤُها وبدأت معالمُ مكّةَ تظهرُ، والدّعاءُ بالأمن للبلدِ خيرُما يُسأل فمنهُ ينبعُ كلّ خيرٍ ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ و أبعدني و أبعد ذُرّيتي عن عبادةِ الأوثانِ، وطلبُ التّجنيبِ؛ وهو الانحيازُ إلى جنبٍ؛ طلبٌ للتّثبيتِ على الإيمانِ؛ وهذا يُصوّرُ مبلغَ الأنبياءِ في اعتقادِهم أنّهم اهتدوا بفضلِ الله وحدهُ، والبنوّةُ في الآيةِ بنوّةُ الدّينِ كما صرّحَ عنِ الأبوّةِ في قولِه: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحجّ ٧٨] ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ طلبتُ ذلك يا ربِّ لأنّ عبادةَ الأصنامِ قد استهوت كثيرًا من النّاس فتركوا التّوحيد والإيمان، وإعادة لفظِ الربِّ هنا مع توكيدِ الجملةِ لإنشاءِ التّحسّرِ، ونسبَ الإضلال إلى الأصنام مجازًا والمضلُّ الشّيطانُ بسببِها ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ والذي يتّبع ما جئتُ به يا الله فإنّه في زُمرتي عليَّ لهُ ما على نفسي من حقوقِ التّعليمِ والدّعوةِ إلى الله ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومن خالفَ منهجي بعدَ كُلِّ الجهدِ الذي قمتُ به تجاهه فإنّكَ غفورٌ لتقصيري ترحمُ ضعفي؛ وهذا أنسبُ للآيةِ؛ وفيه تعريضٌ بالخَلَفِ الذينَ لم يبرُّوا أباهم؛ كما فيهِ اعترافٌ من إبراهيم عليه السلام بأنّ الهداية ليست بيدِه، أو أنت أهلُ العفوِ والرّحمةِ لا تُعاجلُ بالعقُوبة؛ ورجاؤُه الغفران هذا محمولٌ على عدمِ علمه بتحريمِ الدّعاءِ بالغفرانِ للمشركِ كما كان شأنُه مع أبيهِ، أو هو كناية عن تفويض الأمر لله وهذا أولى، أو بتقديرِ تغفرُ لمن تابَ وترحمُه، ، وبين "تبعني وعصاني" طباقٌ ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ يا ربِّ إنّي أسكنتُ بعضَ أهلي على ضفّةِ وادٍ عديمِ الزّرعِ والنّباتِ؛ عندَ المكانِ الذي أردت أن يقوم فيهِ بيتُك الحرام؛ كلّ ذلك طاعةً لأمرِكَ، وذُرّيّتُه هنا ابنهُ إسماعيلُ وأمّه هاجر كما في الحديثِ[١٤]، ولم يقل: لا زرع فيه؛ ليدلَّ على طبيعةٍ متمكّنةٍ فيهِ فهو كثيرُ الأحجارِ، و"المحرّم" المعظّم الذي حرُمت إهانتُه بكلِّ الوجوهِ ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ جئتُ بهم ربَّنا إلى هذا الموضع لا لشيءٍ إلاّ مِن أجلِ القيامِ بشعيرة الصّلاةِ؛ وبالتّبع باقي المناسك؛ والمرادُ ليكون عامرًا أبدًا بمن يُقيمُ النّسك فيه، وفي

[١٤] حديثٌ طويلٌ رواهُ البخاري من طريقِ ابنِ عبّاسٍ: كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾، رقم:٣٣٦٤(٤/١٤٢).

هذا لفتةٌ إلى تقديسِ مكانِ الحجّ وأشهرِهِ ليتفرّغَ الحاجُّ فيها إلى ما قامت من أجلِه تلك المشاعر، وجدّدَ النّداء بلفظِ الرّبوبيّةِ كلَّ مرّةٍ تذلّلاً لله ورغبةً في الاستجابة ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ فاجعل أفواجًا من النّاسِ تأتيهِ لا تنقطعُ عنه، وفي اختيارِلفظِ "تهوي" الدّالّ على الهُبوط السّريع مع "أفئدةٍ"؛ استعارةٌ بديعةٌ لحالِ الذينَ يجيئونه من بعيدٍ وهم كلُّهم حنينٌ إليهِ حتّى صاروكأنّ الأفئدةَ هي التي تحضُرلا الأجسادُ، وضميرُ"إليهم" لسكّانِ مكّةَ الذين حبّب الله إليهم خدمةَ الزّوارِ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ وامْنُن عليهم يا الله من شتّى أنواعِ الثّمارِرجاءَ أن يدُوموا على شُكركَ وعبادتِك، وقد استجابَ الله لإبراهيم عليه السلام فظلّت مكّةُ على العمومِ آمنةً عامرةً بالخيرِ[١٥] ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ يا ربّنا نشهدُ بأنّك تعلمُ جميعَ ما نُسرّهُ في أنفسنا أو بينَ بعضنا كما تعلمُ ما نجهرُ بهِ؛ سواءٌ لديكَ السّرُّوالإعلانُ، ومن ذلك دعاؤُنا لكَ وأسفُنا وحزننا على ذرّيّتنا لتحفظَها، وبينَ "نُخفي ونُعلن" طباقٌ حسنٌ ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ والله لا يغيبُ عن علمِه أيّ شيءٍ مهما كانَ في طبقاتِ الأرضِ أوفي فضاءاتِ السّماء؛ فهو العالم بما خلقَ، و"من" لاستغراقِ كلّ شيءٍ بالعلمِ والإحاطةِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ الثّناءُ كلّهُ عليكَ يا الله حينَ رزقتني و أنا كبيرالسّنّ ولديَّ "إسماعيل وإسحاقَ"، و"على" في الآيةِ بمعنى: معَ، وفي الآيةِ أدبُ حمدِ الله على استجابتِه للدّعاءِ ليكونَ العبدُ ذاكرًا حالَ الحاجةِ وبعدَها؛ وفيها إيماءٌ على التّحديثِ بالنّعمةِ، وأيُّ نعمةٍ هي؟ إنّها نعمةُ الولدِ الصّالحِ للأبِ الكبيرفهي أغلى من المالِ مهما كثُر﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ استيقنتُ بأنّ ربّي يسمعُ دُعائي ويعلمُ نجوايَ؛ وسماعُ الله معلومٌ متيقّنٌ و إنّما يُذكرله كنايةً عن قبُولِه الدّعاء واستجابته ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ يا ربِّ وفّقني لأن أكون مداومًا على إقامةِ الصّلاةِ؛ و إقامةُ الصّلاةِ استعارةٌ لحالِ إيقافِ الشّيء منتصبًا لا اعوجاج فيهِ ولا ميلَ؛ وتلكُ الحالُ لا تتحقّقُ إلاّ بعزمٍ وتفريغِ بالٍ وحسنِ إقبالٍ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ واجعل مِن ذرّيّتي مَن يُقيمُ الصّلاةَ أيضًا؛ وطلبُه هذا كأنّه قال: لا تجعل عبادةَ الصّلاة تنقطعُ في نسلي؛ وهذا أنسبُ لبدايةِ دعوته بأفرادٍ قليلينَ، أو"من" ابتدائيّةٌ أي طلبَ أن تنشأَ منهم إقامة الصّلاةِ بلا تبعيضٍ ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ يا ربِّ فاستجِب دعوتي و اقبلها، توسّل لرفعِ الدّعاءِ ثمّ توسّل لقَبُوله وهذا أدبٌ في الدّعاءِ، ويجوزُتأويلُ الدّعاءِ هنا بالصّلاةِ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ يا ربِّ اغفرلي ذنوبي التي لا أعلمُها، وفي هذا هضمٌ لحقّ نفسِه وتربيةٌ على المداومةِ على الاستغفارِ في كلّ حالٍ؛ فكيفَ بحالِ التّلبّسِ بعصيانٍ؟ ﴿وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ واغفرلوالديَّ ولكلّ مؤمنٍ موحّدٍ سبقَ أوسيأتي، واستغفرَلأبيهِ قبلَ أن يعلم النّهي فلَمّا نهيَ تبرّأَ منه؛ أمّا أمّه فسكتَ القرآنُ عنها والله أعلمُ بها، وفي الآيةِ من آدابِ الدّعاءِ تخصيصُ النّفسِ به؛ وطلبُه للغيرِ؛ وتعميمُه لمن يستحقُّهُ مع البدء

[١٥]

بذوي الفضـــلِ كالوالـدينِ؛ على أنّ تعميمَ المؤمنينَ وراءهُ حظُّ الدّعـاءِ للنّفسِ ثانيةً لأنّها مؤمنةٌ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يوم يُعرضُون عليكَ للحسابِ؛ وقيام الحسابِ مجازٌعن قيامِ أهلِه وبدءِ ساعتِه، وليس المرادُ تأجيل الغفرانِ لذلك اليومِ و إنّما إظهارُه يومَ يظهرُلِلبشارةِ بهِ و إبعاد الأخبار المخزيةِ ذلك اليوم.

٣٢. إنذار الناس بالعذاب الشديد

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَ أَنْذِرِالنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُـلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَـمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَـكَنْتُمْ فِي مَسَـاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَـهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَـرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾

ثمّ ينتقلُ إلى بعضِ مشـاهِد اليوم الآخرِيُخاطبُ الرّسُـول ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَـبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ لا تظنّنَ بأنَّ الله لا يعلمُ أعمالَ الظّالمينَ وقبائحهُم حينَ يترُكهم على حالِهم مُددًا طويلةً، ونهيُ الرّسُـول ﷺ عن الحسبان محمولٌ على إرشادِه إلى دفعِ ما يُثيرُذلك، كما أنّ نسبَ الغفلةِ إلى الله يُحملُ على نهيه ﷺ تعجيل الحُكم على الظّالمينَ، والآية تضمّنت وعيدًا لكلِّ ظالمٍ وتصبيرًا وتسليةً لكلِّ مظلُومٍ؛ ويدخُل فيها كفّارُ مكّةَ بالخصـوص ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْـخَصُ فِيهِ الْأَبْصَـارُ﴾ إنّ الله تارُكُهم ليومٍ شديدِ الأهوالِ والمو اقفِ؛ رمزَإلى ذلكَ بشُخوصِ الأبصارِفيها، وشُخوص البصرِبقاؤه مفتوحًا، ونسب التّـأخير إليهم مع أنّ المؤخر العـذابِ تهويلاً بـأنّهم مؤخّرُون لأمرٍ مهولٍ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ متوجّهينَ بسـرعـةٍ واهتمامٍ من قُبورِهم وعبركلِّ موقفٍ من مو اقِف الحسـابِ؛ والمهطعُ المسرعُ، والمرادُ لا يُشغل أحدٌ منهم بأمرٍآخرعلى الإطلاق ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِـهِمْ﴾ ورُؤوسُـهم مرفوعةٌ إلى محكمةِ الرّبِّ ينتظرُون ماذا يُقضـى عليهم، وقيل: رؤوسهم مطأطأة مخفوضة، مشتق من قنع من باب منع إذا تذلل، والإقناعُ في اللغة من الأضـدادِ فيشـمل رفعَ الرّأسِ وخفضـهُ، والآية تحتمل الوجهين ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ تنفتحُ جفونُ أعيُنهم ولا تنغلقُ ولا تتحرّكُ من شـدّةِ الهلعِ والخوفِ، ونفيُ الارتدادِ معناهُ اهتمُّوا بما أفزَعهم إلى درجةِ أنّهم لو حاولُوا ردَّ نظرِهم إلى أجسـادِهم لَما طاوعَهم ﴿وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ وقلوبُهم فارغـةٌ من الصّـبرِ والتّعقّلِ؛ كحالِ الخائفِ الذي يودُّ معرفةَ مصـيرِه بعدَ وقوعه بينَ يدي الحاكِم، والهواءُ لُغةً الخلاءُ؛ وليس المراد بالهواء ما اصـطلح عليه علماء الطّبِّ والطّبيعة، فإنه ليس مقصـودًا في الآيةِ، وجعل الأفئدةِ ذات الهواء مبالغة كأنّها زالت من مكانِها فخرجت عن سُلطتِهم؛ كلّ ذلك لشدّةِ الهولِ.

ثمّ يرجعُ إلى محطّةِ الدّنيا فيأمر الرّسُول ﷺ ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ واجتهد في تحذيرِ النّاسِ لا تتوانَ؛ من يومٍ يحلُّ عليهم بوجهِ العذابِ النّهائيّ الذي يبيدُ خضراءهم، والعذابُ دنيويٌّ لأنّه تمّم الآية بقولِه: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ حينَها يطلُب الظّالمون أنفُسَهم بالمعاصي والكفرانِ من الله: يا ربّنا أمهلنا إلى مدّةٍ غيرِ بعيدة لعلّنا نتداركُ أمرنا ونتُوب، أو العذابُ أخرويٌّ، والتّأخير للحسابِ إيماء إلى الرد إلى الدّنيا ليتناسبَ مع ذكرِهم اتّباع الرّسل بالجمعِ ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ لنذعنُ لِلدّينِ الذي كنت تنادينا إليه يا الله، ونسبُوا الدّعوةَ إلى اللهِ شهادةً على صدقِ الرُّسلِ في تبليغِها عنه تعالى ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ ولنتّبعُ دعوتك على منهجِ الرُّسلِ التي أرسلت فينا، والفصلُ بينَ دعوةِ الله و اتّباعِ الرّسلِ فيهِ تلميحٌ إلى ما خصّها الله بهِ من السّننِ والوحيِ، وعرضُ هذا المشهدِ المؤثّرِ قبل حُدوثِه تنبيهٌ لكلّ عاقلٍ بأن يستعدَّ له. فيُجيبُهم الله مباشرةً على طريقِ التّبكيتِ والتّوبيخِ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ ألم يسبق لكم أن حلفتُم بأنّكم دائمون في الدّنيا يخلُف بعضُكم بعضًا تموتون ولا تُبعثُون، أو قسمُهم مؤوّلٌ بحالِهم حيثُ تفرّغُوا للدُّنيا وملذّاتها كأنّهُ لا موتَ ينتظرُهم، فالأوّل زوالٌ عامٌّ والثّاني زوالُ أفرادٍ، وكلامُ الله في المحشرِ قولُ حالٍ أو يخلُقه بهيئةٍ مّا أو يحدّث به عنه ملكٌ ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ و أقمتُم في بلادِ الذين أهلكناهُم بسببِ ظُلمِ أنفُسهم بكبائرِ الآثامِ؛ أفلم تعتبرُوا بهم؟ والآية في مجموعِ الأشقياءِ لا جميعِهم؛ فأوّلُ أمّةٍ مثلاً لا ينطبقُ عليها هذا لأنها لم تسكن في مساكن الظالمين لعدم تقدم أحد عليها، وذكرَ السّكنى مجازًا عن مجاورةِ أهلِ الظّلمِ الذي هو مظنّةُ الاعتبارِ بهم، وليست السكنى في مساكن الذين ظلموا أنفسهم محرمة لذاتها بل المحرم الاغترار كغرورهم؛ وهي من السّكونِ وتتحقّقُ بأدنى نزولٍ ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وقد اتّضحَ لكم جيّدًا كيفَ كانَ أخذُنا لهم بالتّأمّلِ في آثارِهم النّاطقةِ بأحوالِهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ وعرضنا عليكم في القرآنِ أنواعًا من المواعظِ والقوارع بشتّى الصّورِ لأجلِ أن تتبصّرُوا فلم تنفعكم ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ وقد فعلَ الظّالمون ما فعلُوا من الظّلم الشّنيعِ بالدّينِ والرّسُول والمؤمنينَ وعندَ الله وحدهُ جزاءُ ما فعلُوهُ، وتسميةُ الجزاءِ مكرًا مشاكلةٌ، وفي "مكرُوا مكرهُم" جناسُ اشتقاقٍ ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ وشدّةُ مكرِهم بلغت ما لو اصطدمَ بالجبالِ العظيمةِ لأزالَها؛ وهذا على سبيلِ المقاربةِ كقولِه: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم ٩٠ - ٩١] أو عكسُ هذا المعنى بأن تكون "إن" نافية؛ كأنّه قال: ولن يصلَ مكرُهم إلى إزالةِ الجبالِ؛ على حدّ: ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء ٣٧].

٣٣. من أهوال يوم القيامة وعذابه، والقرآن بلاغ و إنذار للناس

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ(٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾

وبعدَ النّهيِ عن حسبانِ غفلةِ اللهِ عن عمل الظّالمينَ؛ يتفرّعُ نهيٌ عن حسبانِ خلفِ الله وعدهُ بنصرِ رُسلِه متوجّهًا إلى الرّسُولِ ﷺ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ فلا تظنّنَ بأنَّ الله مبدّلُ وعدِهِ أو متراجع عنهُ أو مؤخّر إيّاهُ في نصرِ رُسلِه في الدُّنيا و إكرامِهم في الآخرةِ بالرّضوان والجنّةِ؛ وخزيِ أعدائه بالهلاكِ ثمّ الخلودِ في النّارِ واللّعنةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ لأنّ الله صاحب العزّةِ المطلقةِ في كونِه لا يغلبُه مكرٌولا ماكرٌولهُ أن ينتقم ممّن عصاهُ، والانتقامُ عقابُ الظّالمِ بسببِ ذنبِه.

واذكر أيّها الرّسُول ﷺ للنّاسِ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ يومَ يُفني الله هذهِ الأرض ويأتي بأرضٍ غيرِها ويُفني السّموات كذلك ويُنشئُ سمواتٍ غيرَها، وفي الآيةِ محذوفٌ تقديرُهُ والسّمواتُ غيرالسّموات ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ حينَها يُعرضُ النّاسُ كُلّهم على اللهِ المتفرّدِ بالقهرِ والسّلطان للحسابِ وقد خرجُوا من قُبورِهم دفعةً واحدةً، وعبّربالماضي عن البرُوزِ لإفادةِ التّحقّقِ، وهو في حقيقتِه بروزٌ للحسابِ فهم لم يخفوا عن الله لحظةً أبدًا ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ يومَها تُبصرُ أيّها الخائف من عقابِ الله المشركينَ والمنافقينَ مقيّدينَ بالأغلالِ، والمقرّنُ المشدُود بطوقٍ دائريٍّ بالحبلِ أو غيرِه، وذلك مع ذواتِهم ويُحتملُ مع أقرانِهم من الشّياطينِ؛ والتّشديدُ للمبالغةِ في كثرةِ المقرّنينَ أو كيفيّةِ القرنِ، والأصفادُ جمعُ صَفَدٍ وصِفادٍ وهي الأغلالُ والقيود، وعبّربحرفِ "في" تنبيهًا إلى إحاطتها بهم كأنّها سجنٌ وهم بداخلِها ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾ ثيابُهم في جهنّمَ من مادّةِ القطرانِ، وتلك أحوالٌ أُخرويّةٌ يُعلمُ عمومُها والله أعلمُ بدقائقها، والسّرابيلُ واحدُها سربالٌ وهو اللّباس، والقطرانُ مادّةٌ كيمياويّةٌ مائعةٌ سريعةُ الالتهابِ سوداءُ اللّونِ كريهةُ الرّائحةِ تُستخرجُ من بعضِ الأشجارِ؛ كانتِ العربُ تستعملُها في مداواةِ جربِ الإبلِ فتقضي على مرضِها ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ ووجُوههم تمتلئ باللّهبِ فتحترقُ وتشوى، خصَّ الوجهَ لشرفِه ولا شكَّ أنّ أجسادهم كلّها تُحيطُها النّار-وقانا الله لفحَها- ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ كلّ ذلك العذابِ ليوفّي الله كلّ ظالمٍ جزاءَ عنادِه للحقّ وتكبُّرِه على الخلقِ، وبالمقابلِ يُكرمُ الله الصّالحينَ بنزُلِ الأمنِ في جنّةِ الخُلدِ جزاءَ صبرِهم و إيمانِهم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إنّ الله لا يُعجزُه حسابُ الخلقِ الكثيرِ والأممِ العظيمةِ في آنٍ واحدٍ، فمحكمةُ الله ليس فيها تأجيلُ الحُكمِ ولا انتظارُهُ كما أنّ أحكامَها نافذةٌ من أوّلِ وهلةٍ لا طعنَ فيها؛ من كلّ ذلك تبيّنَ وجهُ سرعةِ

حســـابِ الله ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ هذهِ الآياتُ وهذا القرآنُ كلّه بما تضـــمّنَ من مواعظ ونُذرٍ جاءَ للنّاسِ كُلِّهم بلاغًا من اللهِ العظيمِ؛ أي بلغَ الكفايةَ في التّرغيبِ والتّرهيبِ وعامّةِ المواعظِ ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ وجاءَ بفرائدِ الأخبارِوحقائقِ الأنباءِ ليُحذّرَالنّاسَ من خلالِه من إهمالِ مصيرِهم ولِيُنصَحُوا بالعملِ بما فيهِ نجاتُهم ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وجاءَ يدعُو النّاسَ إلى التّوحيدِ ليستيقنُوا أنّ المعبُودَ بحقٍّ في هذا الوجودِ هو إلهٌ واحدٌ متفرّدٌ بالخلقِ والأمرِ والقهرِ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وفي مواعظِ القرآنِ و آياتِه البليغة المتناســقةِ ما يحملُ أولي العقولِ على معاهدتِه وحفظِه وتدبّرِه وقايةً لأنفُســهم من الغفلةِ عمَّا وعدَ بهِ أو أوعدَ، والآية جمعت أصــول ما جاءت من أجلِه الرُّســلُ فكانَ ختامُ السّــورةِ بها بديعًا ناســبَ موضوعها العامّ.

نموذج من أسئلة المسابقات السابقة

حتى يتعرف المشارك على طبيعة وطريقة أسئلة المسابقة، فيما يلي نموذج لبعض أسئلة المسابقات السابقة:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ تضمنت الآيتان علاجا لوسوسة الشيطان هو:

أ	ذكر الله والاعتصام به وطلب الحماية منه لأنه العليم به وبنزغه.
ب	عدم التمادي مع الوسواس حتى لا يتمكن في القلب.
ج	جميع ما ذكر صحيح.

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

ما الفرق بين الاستماع والإنصات؟

أ	الاستماع محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت، والإنصات رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره.
ب	الاستماع رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره ، والإنصات محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت
ج	لا يوجد فرق بينهما، وقد جاء طلب الإنصات تأكيدا لطلب الاستماع

٣- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (الْأَنْفَالُ) هي:

أ	الغنائم من الحرب.
ب	ما يتقرب به المسلم إلى الله من النوافل.
ج	قوافل التجارة.

٤- قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ كره فريق من المؤمنين الخروج للقتال ببدر بسبب:

أ	عدم استعدادهم للقتال، حيث كانت نيتهم الأولى هي التعرض لعير قريش وليس القتال.
ب	للخوف من العدو حيث كان عدد المسلمين قليلا.
ج	أ و ب صحيحتان .

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الطَّائِفَتَيْنِ) هما:

أ	المسلمين والمشركين.
ب	العير المقبلة من الشام وما تحمله من أموال وبضائع، وقتال النفير المقبل من مكة والنصرة عليهم.
ج	المسلمين واليهود.

٦- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معنى الاستدراج الوارد في كلمة (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ):

أ	سيرسل الله لهم الآيات والأوبئة والمصائب مما يجعلهم يقنطون من رحمة الله تعالى، فيأخذهم بغتة من حيث لا يشعرون.
ب	سيبسط الله لهم من الرخاء والنعماء ما يجعلهم ينسونه ويستبعدون عقابه، فيأتيهم بأسه من حيث لم يسبق لهم به علم.
ج	سيرسل الله تعالى إليهم السراء والضراء مما يجعلهم ينسونه ويقنطون من رحمته، فيأخذهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون.

٧- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ورد في تفسير (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا):

أ	كأنك تتعمد إخفاءها على قومك رغم علمك بها من خلال الوحي.
ب	كأنك صاحب معرفة بها وبحث في شأنها ومهتم بها.
ج	كأنك على اطلاع بإمارات قيام الساعة ولكن تخفيها على قومك للاستعداد للامتحان الدنيوي.

٨- قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ مشيئة الله هنا تعني:

أ	إيمان الإنسان أو كفره بيد الله وحده، ولا اختيار للإنسان فيه مطلقا.
ب	يمكن للإنسان أن يتحول إلى غير دينه بنفسه واختياره المطلق دون أن تكون للمشيئة الإلهية أي تدخل في هذا الجانب.
ج	التأدب مع الله سبحانه وتعالى الذي جعل كل شيء بيديه، حتى إيمانهم الذي تمكنوا فيه، فلو شاء الله خذلانهم بالكفر ما منعه مانع.

٩- قالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ "لخاسرون" كانوا يقصدون بها:

أ	التحذير من اتباع شعيب عليه السلام بوقوع الهلاك والخسارة والمتمثلة في أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم كما يظنون؛ لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث.
ب	التحذير من خسارة ما يجنونه من الأموال نتيجة تطفيف المكيال والميزان وغش الناس.
ج	أ و ب صحيحتان.

١٠- قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في هذه الآية الكريمة يحذر الله المؤمنين من بلاء يصيب:

أ	المسيء بظلمه ومخالفته لأمر الله تعالى.
ب	غير المسيء لسكوته عن المخالفين وعدم إنكاره المسيء مع القدرة على ذلك.
ج	"أ" و "ب" .

١١- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى ..... ، وكان ذلك في .....

أ	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى اليهود، وكان ذلك في المدينة المنورة.
ب	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في مكة المكرمة.
ج	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في المدينة المنورة.

١٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ المكر هو ..... ، وتفسير مكر الله سبحانه وتعالى هو .....

أ	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو إلهام نبيه صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه بمخادعة الكفار ورد مكرهم عليهم.
ب	المكر هو محاولة إيقاع الضرر بالقوة، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو رد مكر الكافرين عليهم بإرسال ملائكته لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم.
ج	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو حفظ الله لرسوله وإفشال مكر الكافرين حيث أنجاه الله منهم وحفظه وردد مكرهم عليهم.